الدكتور ضيف الله محمد الأخضر
أستاذ بجامعة وهران

محاضرات
في
النهضة العربية الحديثة

ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر 1980

الدكتور ضيف الله محمد الأخضر
أستاذ بجامعة وهران

محاضرات في النهضة العربية الحديثة

ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر 1980

الباب الاول

ما قبل النهضة

الفصل الاول : المشرق العربي

ينقسم العصر الذى سبق النهضة العربية الحديثة في المشرق العربي الى فترات ثلاث

الاولى: تبدأ بسقوط بغداد سنة ١٢٥٨م على يد المغول بزعامة هولاكو.
الثانية : تبدأ بهزيمتهم على يد المماليك بزعامة السلطان قطز ،وقائده بيبرس في معركة عين جالوت سنة (١٢٦٠م).

الفترة الثالثة والاخيرة ،تبدأ بهزيمة المماليك على يد الاتراك العثمانيين بقيادة سليم الاول سنة (١٥١٧م) وتنتهي سنة (١٧٩٨م) بمجيء نابليون الى مصر.

الفترة الاولى : ظهور التتار.

في سنة ١٢٥٨م فوجيء العالم الاسلامي بدخول التتار بغداد بقيادة هولاكو. وكان هذا القائد قد راسل الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ١٢٥٧م يدعوه الى الاستسلام قبل فوات الوقت ،ولكن الخليفة لم يجبه ،فكان أن (ظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوما حتى أحدثت فجوة في أسوارها، وعندئذ أذعن الخليفة وخرج لمقابلة هولاكو ،ومعه أقاربه وسلمه مدينة بغداد، وأضمر هولاكو الغدر للخليفة ومدينته ،فأمر باخراج الجند الخليفي خارج بغداد، بحجة احصاء عددهم ،ثم أنزل بهم القتل جميعا .وفي صباح اليوم التالي أباح هولاكو بغداد لجنده ،فانتشر المغول في أحيائها.(١)

---

(١) الدولة الاسلامية ،تأليف : عبد الحميد العبادى ،محمد مصطفى زيادة ،ابراهيم احمد العدوى ،ص٢٨٥.

ان اكتساح المغول للمملكة الاسلامية ـ كما يقول جرجي زيدان قد (ذهب ببقية العنصر العربي ،وهدد آداب اللغة العربية بما أتاه أولئك الاقوام في أثناء حروبهم من التخريب والتحريق ،لانهم كانوا اذا فتحوا بلدا قتلوا أهله ونهبوا ما فيه وأحرقوا ما لا يستطعون حمله ،وهدموا المنازل) ٠(١)

نزح هوءلاء المغول من منغولية ومن أجزاء من منشوريا وروسيا وكونوا وحدة عسكرية تحت زعامة جنكز خان (١١٦٧/١٢٢٧م) الذى ظهر على مسرح التاريخ سنة ١٢٠٦ بعد أن استولى على منغولية ثم اتجه الى الصين فاحتل أجزاء منها فى سنة ١٢١٣ ثم استطاع أن يستولى على أكثر أراضيها ،ثم اتجه بعد ذلك الى تركستان وافغانستان وايران وجنوب روسيا .وبعد وفاته تقاسم أبناوءه الثلاثة ممتلكاته ،وساروا سيرته في البطش والتخريب ،وكانوا يشيعون بأن المغول قوم لا ينهزمون٠

فى هذه الفترة المغولية ،كان الصليبيون لا يزالون بفلول جيوشهم رابضين على المدن العربية الساحلية ،ولذلك عزم هولاكو أن يستولي على بقية الاراضي العربية بلدا بلدا.

الفترة الثانية : ظهور المماليك٠

في هذه الفترة التي كان فيها المغول والصليبيون في المشرق العربي ،تلألأ نجم المماليك بعد أن استخلصوا مصر من يد الاسرة الايوبية لانفسهم ،وبرهنوا على أنهم أبطال زمانهم ،وكان زعيمهم السلطان قطز قد رأى أفعال المغول وبطشهم بالمسلمين ،فأسر في أذن قائده بيبرس بأن الانتصار على المغول ممكن ان عمد الى حيلة حربية وطبقاها كما يجب .وكانت الخطة أن يناوش القائد بيبرس قوات هولاكو ببلدة غزة وأن يقوم السلطان بمفاوضة الصليبيين ليسمحوا له باختراق الحدود الساحلية ليباغت المغول (ونجحت المفاوضات على الرغم من تفضيل الصليبيين محالفة المغول ضد سلطنة المماليك) ،وبذا استطاع قطز أن يصل الى مدينة بيسان في سهولة وسرعة ،وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة (١٢٦٠) (٢)٠

ولولا هذه الحيلة التي لجأ اليها السلطان قطز لما استطاع بيبرس أن ينتصر على المغول بمفرده٠(٣)

---

(١) تاريخ آداب اللغة ج ٣ ص ١٢١

(٢) الدولة الاسلامية ،ص ٢٨٧

ـ (٣) ومع ان السلطان قطز قام بهذا العمل الجليل فان بيبرس اغتال السلطان في كمين نصبه له وهو عائد.

وقد حقق المماليك بهذا الانتصار عدة اعتبارات .أهمها :

١ ـ انه في الامكان أن ينهزم المغول وغير المغول متى وجدت ارادة٠

٢ ـ ان الدولة الخوارزمية التي انهزمت أمام المغول لم تكن في المستوى الذى كانت عليه سابقا بسبب انقسامها على نفسها٠

٣ ـ ان الدولة العباسية في العراق كانت هي بدورها عاجزة سياسيا وعسكريا ..ويتضح هذا في ضعف الخليفة حين استدرجه هولاكو الى أن دل على الاموال ثم قتله٠

٤ ـ ان الدول الاوربية مثل المجر ،وبولونيا ،وجميع القوى المسيحية بما في ذلك روسيا لم تستطع ان تقف في وجه المغول٠

وعلى هذه الاعتبارات يكون المماليك قد انقذوا الامم الاسلامية والامم المسيحية من بطش الهمجية المغولية ،هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فان المغول بعد انهزامهم أخذوا ينكمشون على أنفسهم ،ويحتكون بالاهالي ،ويمتزجون بهم ، وبمرور الايام أصبحوا مسلمين ،فاذا هم يساهمون في بناء حضارة اسلامية رائعة ، لا تزال آثارها تدل عليهم ٠

وفي فترات متعاقبة دب الشقاق بينهم وتحاربوا ،ثم انشقوا على أنفسهم ٠ فاستقل فرع منهم بتركستان ،وآخر بالصين ،وفرع ثالث بروسيا ،وفرع رابع بايران ، واعتنقوا جميعا الدين الاسلامي (وانفرد مغول روسيا بالسبق الى اعتناق الاسلام على المذهب السني ،ثم انتشر الاسلام بعد ذلك بين مغول ايران على المذهب الشيعي) (١)

أصل المماليك :

كان صلاح الدين الايوبي (١١٣٧ ـ ١١٩٣) في القرن الثاني عشر الميلادى في أوج عظمته ،بعد ان استخلص مصر لنفسه من الفاطميين ،فرأى شراسة الصليبيين ودخولهم بيت المقدس ،ففكر في أحسن طريقة يمكن أن يستعملها ضد الصليبيين حتى ينتزع منهم بيت المقدس وغيرها من المدن العربية ،فاهتدى الى أن يشترى عددا ضخما من الجراكسة والاتراك ،وأن يدربهم على الفروسية والفنون الحربية ، ثم يزج بهم في أتون الحرب مع الصليبيين ،وقد فعل ،وانتصروا على الصليبيين فكان ان انسحبوا من بيت المقدس ،وتقهقروا الى سواحل المدن العربية ،

---

(١) الدولة الاسلامية ص ٢٨٩

حروب سيف الدولة الحمداني
مع البيزنطيين

وبمرور الايام انقرضت الاسرة الايوبية وآل الملك الى هؤلاء المماليك، وأخذوا يتصرفون في شئون مصر حسب أهوائهم لانهم جلبوا من الخارج ومن ثم فلا رابطة أدبية أو روحية تربطهم بالاهالي. فكان الاهالي في نظرهم رعايا ومجرد رعايا. واستمروا على هذا النحو الى الحملة الفرنسية حيث اختفوا، ثم ظهروا بعد خروج هذه الحملة سنة (١٨٠١) التي لم تدم في مصر الا نحو ثلاث سنوات. ثم قضي عليهم محمد علي سنة (١٨١١) بعد أن حكموا مصر من سنة (١٢٥٠) الى سنة (١٥١٧) حين قضي سليم الاول على دولتهم، (ولكن البكوات المماليك ظلوا قوة حاكمة يعتد بها ومصدر فتن واضطرابات داخلية) (١).

الفترة الثالثة: الاتراك العثمانيون.

ان سلالة الاتراك العثمانيين هي نفس السلالة التي عرفناها على عهد المعتصم (٨٣٣ – ٨٤١) ومن جاء بعده من الخلفاء كالواثق (٨٤١ – ٨٤٦) والمتوكل (٨٤٦ – ٨٦١م).

كانت الاوضاع متوترة في خلافة المعتصم. فتن، وحروب. وأخطرها حروب بابك الخرمي الذى استطاع أن يسيطر على عدد من البلدان الاسلامية مدة عشرين سنة، وأن يبعث في النفوس الرعب والقلق بسبب التخريب والاعمال الوحشية التي كان يقوم بها، وقد استطاع أن يهزم بغا الكبير ويستولي على أرزاقه، ويقتل جنده. وحاول أن يهزم زعيم الاتراك الاشفين ولكن الاشفين انتصرعلى بابك سنة ٨٣٨م.

ان مثل هذه الاضطرابات أوحت الى المعتصم أن يجلب عددا كبيرا من الاتراك، ليستعين بهم على حماية الثغور الاسلامية من الاعتداءات الخارجية. ولم يكد يفعل ويحقق بعض النتائج الحسنة على ايديهم كفتح عمورية سنة ٨٣٨م بقيادة الافشين حتى بدا للمعتصم خطأه، وندم على ما فعل، وقال لاحد المقربين اليه: (يا اسحاق في قلبي شيء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة. فقال اسحاق: قل يا سيدى، فانا عبدك وابن عبدك. قال المعتصم: نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم! قال اسحاق: ومن الذى اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيت وسمعت. وعبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذى لم ير مثله.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة (مملوك) ص ١٧٤٣

وأنت فأنت ـ والله ـ الذى لا يعتاض السلطان منك أبدا وأخوك محمد بن ابراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الافشين. فقد رأيت ما صار أمره. واشناس ففشل أيه وايتاخ. فلا شيء. ووصيف، فلا مغنى فيه.

فقال اسحاق: أجيب يا أمير المؤمنين على أمان من غضبك ؟

قال: قل.

قال اسحاق: يا أمير المؤمنين نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب، اذ لا أصول لها.

قال: يا اسحاق لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب (١).

ولما تولى الواثق ابن المعتصم (٨٤١ ـ ٨٤٦) الخلافة خطا خطوة جديدة لم يسبق اليها، اذ توج اشناس واستخلفه.

كانت هذه الخطوة الجديدة التي فاز بها الاتراك سببا في أن يطغوا وأن يهيمنوا على الخلفاء ابتداء من المتوكل الذى ذهب ضحيتهم، الى آخر خلفاء بني العباس. فقليل هم الذين نجوا من القتل، أو الخلع، أو السجن، أو سمل الاعين.

الفصل الثاني: مصر قبل النهضة.

تولى زعامة مصر عدد من الاسر، منذ أخذت تستقل عن الدولة العباسية على عهد ابن طولون (٨٧٧) الى الدولة العثمانية (١٥١٧) وجميعهم غير مصريين، سواء منهم الاعاجم أو العرب. وكانت نظرتهم الى مصر تختلف من زعيم الى آخر، بحسب المذاهب والاتجاهات. كان بعضهم ينظر الى مصر نظرة مواطن مخلص لوطنه يدافع عنه وعن لغته، ويشجع أرباب الحرف والفلاحين. وكان بعضهم يرى في مصر ما يراه في مزرعة أو بقرة حلوب، ثم أن هؤلاء لا يتعهدون المزرعة أو البقرة، انما يكلون ذلك الى الفلاح، ويأتون أخيرا لينتزعوا منه ثمرة جهده.

وقد أدى هذا النوع من المعاملة السيئة التي كان يعامل بها الفلاح الـ صرى الى تدهور الاقتصاد ونقص في الامكانات، مما أدى بالمصريين أخيرا الى أن ينقص عددهم، ومن ثم لم يقووا على مجابهة الغزو الفرنسي ١٧٩٨. والذى يلاحظ أن

(١) طبرى ج١١ ص ٨ وظهر الاسلام ج ١ ص ٧ وراجع أحمد توفيق المدني في كتابه (حرب الثلاثمائة سنة ص(٥٦)



الإمارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين

مصر تنفرد عن العالم العربي بميزة الاستقطاب ،حتى أصبحت كعبة القصاد لجميع الوافدين اليها .وميزة الاستقطاب هذه لا يمكن تعليلها .هل ترجع الى الاهالي؟ أم الى الاشعاع الثقافي؟ أم الى روح غامض؟ أم الى عدة عوامل مترابطة؟

وأيا كان الامر فقد استقطبت مصر عدة شخصيات من أمم مختلفة ،وفي ميادين شتى .كان بعضهم ابنا بارا ،وكان بعضهم ابنا عاقا .وفي كلتا الحالتين ،كانت مصر هدفا لسهام الاعداء في كل وقت .وكانت تتحمل ثقل هؤلاء الاعداء ،سواء في الداخل ،أو في الخارج .فقد تحملت ثقل الصليبيين الى أن حققت انتصارا تاريخيا باهرا سنة (١٢٥٠م) حين قضت على الحملة الصليبية السابعة ،وأسرت قائدها ملك فرنسا لويس(٩) كما تحملت ثقل المغول الى أن حققت انتصارا عظيما سنة (١٢٦٠م) . وكان أول انتصار يحققه العرب على المغول.

وهذا الثقل استمر بعد الصليبيين والمغول الى عصور المماليك التالية :

١ – المماليك البحرية (١٢٥٠ – ١٣٨٧)
٢ – المماليك البرجية (١٣٨٧ – ١٥١٧)
٣ – المماليك البكوات (١٥١٧ – ١٨١١)
٤ – مماليك الاسرة العلوية (١٨١١ – ١٩٥٢)

وكانت مصر مثقلة ايضا بتلك المعاهدات الدولية التي تتمثل في الامتيازات الاجنبية على حساب الشعب المصرى .فبعد أن كانت تتمتع بحقوقها في أول معاهدة لها عقدها صلاح الدين الايوبي في ١١٧٣/٩/٢٥ مع جمهورية بيزا فاذا المعاهدات التي جاءت بعد ذلك وأولها معاهدة السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الاول في سنة (١٥٣٥) الى معاهدات أخرى مع عدد من الدول ومنها امريكا سنة (١٨٣٠) .

كل هذه المعاهدات اضرت بالاقتصاد المصرى ،وسببها أن الاجانب أخذوا يتدفقون على ((الديار المصرية ،واتخذوا التجارة ونقل البضائع مهنة لهم في السواحل المصرية ،ولما كانت حاجة المماليك اليهم عظيمة في تصريف تجارة الشرق التي احتكروها اباحوا للاجانب الاستيطان في الديار المصرية ،والبقاء فيها بقصد الاتجار ،فاصبح لهم قناصل في جميع الموانيء والسواحل وداخل البلاد)) (١) فكان هذا الوضع سببا في أن يفقد المصرى شخصيته ،ويصبح كالغريب في بلاده مثله مثل سائر العرب والمسلمين في أصقاع العالم .

---

(١) المماليك في مصر ، ص ١٣٥

الباب الثاني
المغرب العربي قبل النهضة

مقدمة :

يرتبط المغرب العربي بالمشرق العربي ،وذلك منذ أن وحد الاسلام بينهما ، فعلى الرغم من المسافات البعيدة التي تفصل بين أجزائهما ،فان ما يحدث في جزء منه يؤثر في سائر الاجزاء الاخرى ،ان ضعفا فضعف ،وان قوة فقوة .وقد مر العالم العربي في مشرقه ومغربه بحالتي القوة والضعف في فترتين متباعدتين ،أولاهما كانت فترة انبعاث وقوة .والثانية كانت فترة ركود وانتكاس .وعوامل القوة معروفة ، وكذلك عوامل الضعف .

الفصل الاول : لمحة تاريخية عن المغرب العربي

عاملان اثنان شجعا الفاتحين الاولين على مواصلة الزحف لنشر راية العروبة والاسلام على ما أمكن من بقاع الارض .أحدهما ارتفاع معنويات الجيوش الاسلامية . وثانيهما :الرعب الذى كان يغزو قلوب الجيوش الرومانية في المغرب قبل خوض المعارك .ومثل هذا حدث في غزو اسبانية .فطارق بن زياد زحف على الاندلس دون تخطيط سابق .وقائده الاعلى موسى بن نصير ،لم يرو عنه انه خطط في غزو الاندلس بل امتعض من الفتح المبين الذى جاء على يد طارق دونه .وعبد الرحمن الغافقي لم يكن هو ايضا قد خطط في غزوه فرنسا .

فقد فتحت الاندلس سنة (٧١١م) ثم غزى جنوب فرنسا سنة (٧٣٢م) والفترة بين التاريخين قصيرة جدا ،والسبب أن المسلمين الجدد ،وأكثرهم من البربر، طاب الجهاد لهم مع قدماء الفاتحين ،ولذلك استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يستولي على عدد من المدن الفرنسية على ضفاف نهر اللوار في سهولة ،وكان تخطيطه تخطيطا عشوائيا ،اذ كلما استولى على مدينة فرنسية ترك فيها حامية صغيرة ،ثم انطلق الى غيرها ،وقد غنم الشيء الكثير .

كان في هذا الوقت شارل مارتل الذى يعد أكبر قائد فرنسي نفوذا وشهرة ، وقد سئل مارتل عن موقفه من الغزو العربي فقال : ((دعوهم يصنعوا ما يشاؤون ، فهم الآن مستأسدون ،وهم كالسيل الذى يأتي على كل ما يعترضه ،وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والحصون ،ولكنهم اذا ما أثقلتهم الغنائم وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة ،وألفوا رفاهية العيش ،واستحوذ الطمع على

قادتهم ،ودب الشقاق في صفوفهم زحفنا عليهم واثقين من النصر (١)٠وقد تحققت تنبوءات القائد الفرنسي ،وكان لزاما أن تتحقق ،وذلك لسببين،أحدهما يرجع الى التخطيط العشوائي ،وثانيهما يرجع الى غلبة الناحية المادية على الناحية الروحية والاسلام لا ينتصر الا بتقديم الناحية الروحية على الناحية المادية،وقديما هزم الصحابة عندما سهوا عن نصيحة نبيهم من أجل الغنائم .

((أجل كان رأى شارل مارتل صائبا غير أن الرعب الذى ألقاه العرب في القلوب كان من الشدة ما تركوا معه ينهبون البلدان التي قطعوها بدلا من محاولة وقفهم))٠(٢)

يقرر لوبون : ان العرب لم يكن من عادتهم نهب البلدان التي يرغبون في استيطانها ،اما وقد خربوا الحقول الخصبة التي وقعت بين مدينة بوردو ومدينة تور واستولوا على مغانم كثيرة ،فان هذا العمل يدل على أن عبد الرحمان عندما دخل فرنسا (لم يكن يفكر في غير الغنائم) (٣)

ويبدو لي أن عوامل ثلاثة مجتمعة كانت سببا في انهزام العرب ،وهي عوامل متداخلة .

أولها : كثرة الغنائم – ثانيها : كثرة الجيوش. ثالثها : قلة الاطارات.
كلهذه العوامل ساعدت على الفوضى والاضطراب ،وخاصة اذا ذكرنا ان عددا كبيرا من الجنود كانوا حديثي العهد بالاسلام ،ومن أصل غير عربي ،فكانت النتيجة ان تغلبت القلة الموحدة على الكثرة المضطربة .

نقل عبد الرحمان الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر نصين لباحثين منصفين يتأسفان على انهزام العرب في معركة بواتيه ،اذ يريان أن العرب لو قدر أن انتصروا في هذه المعركة وتم لهم فتح فرنسا ثم أوربا ،لانقذوا نصف العالم من ظلمات القرون الوسطى التي عاشتها أوربا ،بينما اسبانيا لم تعرف هذه القرون الوسطى الا بفضل العرب٠(٤)

---

(١) حضارة العرب : لوبون ، ترجمة زعيتر ، ص٣١٤ ،ط١٩٥٦ – الحلبي
(٢) المصدر السابق ،ص ٣١٤
(٣) المصدر السابق ،ص٣١٤ – (٤) انظر الجزء الاول ص ١٨٤ ،ط ٢ – ١٩٥٦ مكتبة الشركة الجزائرية ودار الحياة بيروت



خريطة توضح اتساع الدولة الإسلامية في القرن الأول الهجري
السابع والثامن من الميلاد

كانت هذه الهزيمة في بواتييه أول هزيمة من نوعها في تاريخ الحروب العربية فقد كان الاوربيون يعتقدون أن العرب قوم لا ينهزمون ،فلما أدركوا منهم هذا الضعف ،ولاول مرة ،وعرفوا مصدره ،تكونت في نفوسهم ،ولاول مرة فكرة مقاومة العرب ونمت هذه الفكرة بمرور الزمن ،وأخذت تنتشر في كل مكان الى أن عمت أجزاء عديدة من أوروبا ،ثم زحفت الى اسبانيا لتتكتل وتكون لها منطلقا هناك ،تهاجم العرب مرة بعد أخرى ،وفي أثناء ذلك كان الاوروبي يشتد بأسه بينما العربي أخذ نجمه في الافول رويدا رويدا ،وهكذا انقلبت الآية فقد أصبح الاوروبي الضعيف بالامس قويا الآن ،والعربي عكسه تماما ،فقد كان بالامس قويا ،فأضحى الآن ضعيفا .

آمن الاوروبيون بمبدا انهزام العرب ،فأخذوا يناوشونهم مرة ويحاربونهم أخرى في أماكن مختلفة ،وأزمنة متتالية ،الى أن حققوا انتصارات في كل من جنوب فرنسا ثم الاندلس ثم صقلية ،وتم لهم طرد العرب من هذه الاصقاع طردا اليما ، وكادوا يحققون انتصارات أخرى في المغرب العربي وفي جزء كبير من المشرق العربي لولا تظافر الجهود وأصالة العروبة في كل من هذين الجناحين .

تعليق

لو قدر للعرب أن نظموا أنفسهم وتحلوا بالخلال الاسلامية العليا لحافظوا على ما بأيديهم بل لزادوا في ملكهم أجزاء كثيرة ،ولانقذوا أمما من وحشيتهم التي كانوا عليها آنذاك .

وأيا كان الامر فان الدول الاوروبية كانت تعتقد : أن العرب قوم غزاة جاءوا من بعيد بدافع الفقر ،ليعتدوا على أملاكهم وأرزاقهم ،واذن فيجب ردع المعتدين فكان أن جندوا انفسهم ووحدوا كلمتهم ،ووقفوا صفا واحدا في وجه العرب .وكان من ورائهم القساوسة يغذون أفكارهم باسم الدين ،فاذا الاوروبيون ينطلقون من مواطن كانت بالامس معاقل لابناء العروبة والاسلام .ينطلقون ونفوسهم مملوءة بالحقد وحب الانتقام ،فلو رأيتهم وهم يجمعون أمرهم لينقضوا على العرب ،لرأيت وحوشا في أجسام بشرية ،فهم كاللبوءات التي فقدت أجراءها ،لباسهم من جلود الحيوانات ،وأكثرهم حفاة ،لا يفقهون من معاني الحياة الا سفك الدماء .

الفصل الثاني

الجزائر في التاريخ

يرتبط تاريخ الجزائر بالغزو الاسباني منذ (١٤٩٢) الى (١٧٩٢) وهي المدة التي عرفت بحرب ثلاثمائة سنة ،وخصها الاستاذ توفيق المدني بكتاب يحمل نفس العنوان .

في هذه السنة (١٤٩٢) كان الاسبان قد انتصروا على جميع العرب في الاندلس ،وأجلوا ملوك غرناطة بعد ان استولوا عليها بسهولة بسبب الانقسامات العائلية التي أودت بهم جميعا .

كان الاسبان يتقمصون النزعة الصليبية في المغرب الاسلامي ،كما كان الاوروبيون الاخرون يتقمصون هذه النزعة الصليبية في المشرق الاسلامي ،فاذا كان هناك بعض الاختلاف فهو اختلاف نسبي ،وبشيء من التأمل ندرك هذه النزعة التي عزت نفوس القوم واستأثرت بكل أفكارهم وجعلتهم يتجهون بكل قواهم الى البطش بالعنصر العربي .والباحث المنصف ليدهش عند ما يقارن الاحداث الصليبية في كل من المشرق والمغرب ،اذ يدرك التناوب الصليبي الذى انصب على العرب هنا وهناك . فما كادت أشباح الصليبيين تختفي من الاذهان في المشرق حتى ظهر شبح الصليبيين الجدد في المغرب بزعامة الاسبان .

في سنة (١٤٩٢) سقطت غرناطة في يد الاسبان ،وهي آخر معقل اسلامي في الاندلس .وفرح المسيحيون بهذا الانتصار ،لانه يمثل الوحدة الصليبية في كل مكان .

وفي سنة (١٤٥٣) سقطت قسطنطينية في يد الاتراك العثمانيين ،وهلل المسلمون ،وكبروا ،لان هذا الانتصار يجسد الوحدة الاسلامية في كل مكان ،وكاد ينسيهم هذا الانتصار التركي ما كان قد أصابهم في الاندلس منذحين .

انتصر الاتراك على البيزنطيين ،وافتكوا منهم القسطنطينية التي أعيت عباقرة العرب منذ الفتوحات الاسلامية الاولى ،لان الاتراك صبغوا غزوهم بصبغة دينية ،فكان أن وحدوا جهودهم ،كما أن الاسبان صبغوا غزوهم بصبغة دينية ،ثم وحدوا جهودهم ،فانتصر كل من اولئك وهؤلاء ،بينما انهزم العرب في الاندلس، لانهم مزقوا وحدتهم بسبب تقاتلهم فيما بينهم من أجل السلطة .

استعمل الاسبان في حروبهم سلاحين .أحدهما : اعتمادهم على أنفسهم .
وثانيهما : بث الشقاق بين أمراء العرب ،ليتقاتلوا فيما بينهم أولا ،فاذا ما ضعفوا انقضوا عليهم جميعا .فمثلا أن أسرة بني زيان في تلمسان كانت تحكم الجزائر وكان أبو حمو الزياني من أشهر رجال الدولة الزيانية ،ومع ذلك فقد قتله ابنه تاشفين عبد الرحمان ليتولى السلطة في مكان أبيه ،وذلك سنة (١٣١٨م) فاذا هذا الابن العاق يلقى مصرعه على يد الدولة المرينية بالمغرب الاقصى سنة (١٣٣٧) .
كل ذلك بالدسائس التي كانت تحاك بأصابع خفية ،تحركها اسبانيا في كل مناسبة .

وكان المغرب يمتد من ليبيا الى المغرب الاقصى .تناوبته ثلاث دول .دولة بني زيان في تلمسان (١٢٣٥ – ١٥٥٤) . ودولة بني مرين في المغرب الاقصى (١٢٦٩ – ١٣٩٣) .ودولة الحفصيين في تونس (١٢٢٩ – ١٥٧٣) .

استمر المد والجزر بين هذه الدول الثلاث مدة طويلة ،وفي بعض الاحيان تنطلق الدولة المرينية الى تونس لتبسط سلطانها على الجزائر وعلى تونس معا ، وتبقى مدة مهيمنة ،ثم تدور عليها الدائرة ،فتتقلص ،والدولة الحفصية تتعقبها ((ودولة بني زيان بين شقي الرحى)) .(١)

يقول أحمد توفيق المدني (وهنا يجب علينا أن نبدى ملاحظة انصافا للحقيقة والتاريخ ،وهي أن دولة بني زيان التلمسانية قد ذهبت ضحية محاولات الحفصيين ، ومحاولات المرينيين معا .. وأعجب العجب أن يد الاستعمار المسيحي الاوربي قد أخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منكرة ،وتنذره بالويل والثبور منذ بداية القرن الخامس عشر حين تطاولت ايدى الاسبان الى مدينة تطوان سنة (١٤٠٠) فأخذتها وحطمتها وقتلت النصف من سكانها ،وساقت الباقين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا الى اسبانيا .في حين كان ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان من أجل ارغامها على التبعية لبني مرين .فاحتل تلمسان وطرد ملكها أبا زيان ونصب مكانه أبا محمد عبد الله .وتطاولت بعدها يد البرتغال على مدينة سبتة سنة (١٤١٥) فاحتلها الملك خوان بنفسه ،بينما كان أبو سعيد يحارب أبا حسون من أجل تلمسان ايضا .) (٢)

وكانت الجزائر في هذه الاونة وما بعدها لا تقوى على دفع الاذى عن نفسها ، لتفككها وانقسامها أحزابا وشيعا .

(١) حرب ثلاثمائة سنة ،ص ٦٥ .
(٢) المصدر السابق ،ص٦٦

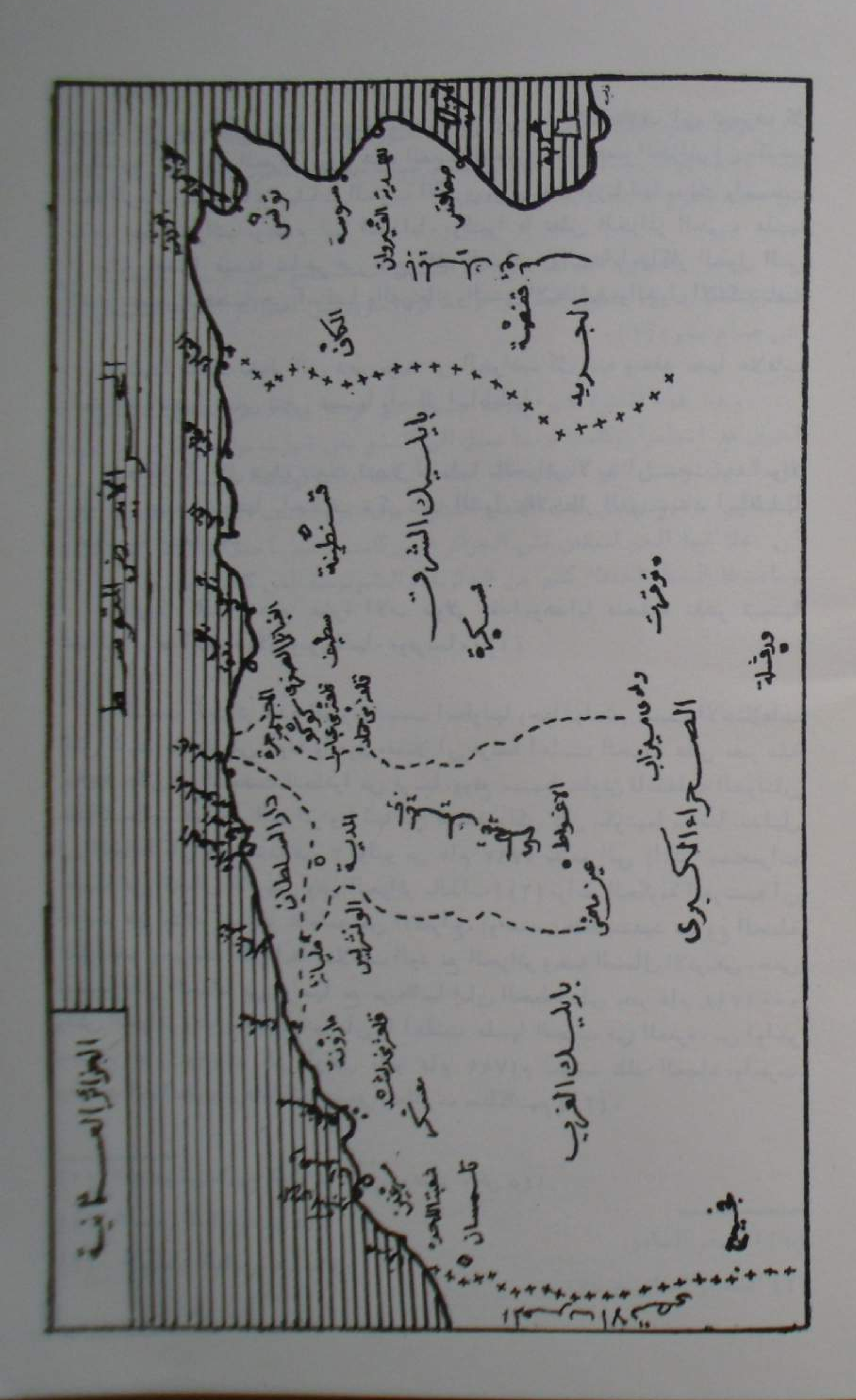
استمرت الجزائرفي هذا التفكك والانقسام ،وهي تتلقى الضربات القاسية ،تلو الضربات ،فمرة من الحفصيين بتونس ،ومرة من المرينيين بالمغرب الاقصى ،ومرة ثالثة من الاسبان ،وهكذا ،الى أن ظهر في أوائل القرن السادس عشر الاخوان التركيان البربروسيان : بابا عروج ،وخير الدين على مسرح الاحداث .فقد كانت شهرتهما قد انتشرت في الافاق ،بسبب شجاعتهما ،وانتصاراتهما على سفن الاعداء في البحر الابيض ،اذ كانا بطلين مغوارين يخوضان غمار الموت ولا يهابان الردى . ووقفا روحيهما على الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله والدفاع عن حياض الدين الاسلامي الحنيف في كل مكان وفي جميع المناسبات .وكانت القرصنة البحرية في هذا العصر شائعة ،ومستساغة ،يتخذها بعضهم حرفة للاكتساب ،ويستعملها آخرون لمجرد الهيمنة واظهار الشجاعة .ويستعملها فريق ثالث لغرض انساني أو ديني أو وطني .

وهذه الصفات كلها قد اجتمعت في الاخوين البربروسيين ،وتجلت بوضوح في بابا عروج عندما أخذ على نفسه عهدا فيانقاذ المسلمين الفارين بدينهم من الاندلس .فقد كان الاسبان يتعقبون هؤلاء المسلمين الفارين ،ويبطشون بهم بطشا أو يفتنونهم في دينهم .فشاع عمل هؤلاء بين سائر المسلمين ،وسمع به بابا عروج ، فرأى أن يدخل باب الجهاد من القرصنة البحرية .فكان يتصدى لسفن الاعداء من الاسبان باسطوله القوى ،فينتصر عليهم وينقذ المسلمين الاندلسيين من بطش أعدائهم الاسبان .

لهذه الخلال الحميدة المجتمعة في البطلين التركيين ،رأى أهالي بجاية والجزائر وتلمسان أن يستعينوا بهما لوقف غارات الحفصيين والمرينيين والاسبان . فاستجاب الاخوان لارادة الشعب الجزائرى وشرعا في وضع خطط حربية ناجحة . فما ان اتحد الشعب الجزائرى ودخل تحت لواء البطلين التركيين حتى أصبح ذا قوة وهيمنة ،ولم يبق من يقاومه الا أعداء دينه الاسبان .فكان الجزائريون يناوشون الاسبان مرة ،ويحاصرونهم أو يحاربونهم مرة أخرى .

وتنقسم فترة الجهاد التي قام بها الاخوان البربروسيان بمشاركة الجزائريين الى مرحلتين :
الاولى : تبدأ سنة (١٥١٣) وتنتهي بموت عروج سنة (١٥١٨)

والمرحلة الثانية تمتد من تاريخ وفاة عروج الى (١٥٤٧) وهي السنة التي مات فيها خير الدين الذى كان قد خلف أخاه على كامل القطر الجزائرى ،والى الاول يرجع الفضل في انشاء الدولة الجزائرية سنة (١٥١٦) والى الثاني يرجع الفضل



في تحرير البلاد نهائيا من يد الحفصيين والمرينيين حتى أصبحت ذات حدود معينة هي حدودها الحالية.

الجزائر من سنة ١٤٩٢ الى سنة ١٨٠٠

بعد جهاد طويل وعنيف دام ثلاثة قرون بين الجزائريين والاسبان تكونت للجزائريين خبرة فيالحروب البحرية التي تعتمد في الدرجة الاولى على القرصنة ويرجع تاريخها الى الحروب الصليبية التي عرفت عن الاسبانيين والايطاليين ثم الانجليز.

ويمكن تقسيم تاريخ القرصنة بالنسبة للجزائر الى فترتين :

الاولى : تمتد من سنة ١٤٩٢ الى ١٧٩٢ أعني مدة الحروب الجزائرية الاسبانية. وهذه الفترة تتسم القرصنة فيها بصبغة دينية، اذ كانت العمارات البحرية تجوب البحار، وتتصدى للغزاة الاسبان. ان هذه المرحلة من القرصنة كانت مرحلة مشروعة فلم توجه الى الجزائر أى انتقادات أو اعتراضات، بل كانت الجزائر في هذه الفترة ذات شأن عظيم، بفضل هيمنتها على البحر، ودعاها بعضهم بلاد الحرب.

((جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى : " كانت الحكومات فيما سلف تسلم أوراقا رسمية للقراصنة فتكسبهم بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود متطوعين أحرارا يعملون فوق البحر)) (١)

والمرحلة الثانية تبدأ بعد خروج الاسبان من الجزائر سنة ١٧٩٢ وتمتد الى سنة ١٨٠٠.

في هذه الفترة القصيرة أخذت الدول الاوربية تتذمر مما يلحق مراكبها في البحر الابيض من الهجمات الجزائرية، لان الدولة الجزائرية في هذه المرحلة كانت قد شعرت بعزتها ووحدة ترابها وعدم تبعيتها أو خضوعها لاحد، فكانت لهذه الخلال قوية ومهابة، ويتوقع أن تصبح خطرا على الدول الغربية وخاصة الدول الاوربية.

وفعلا فقد كانت هذه الدول الاوربية تجتمع فيما بينها لوضع حد لهيمنة الجزائر على البحر، ولكنها تفترق دون أى قرار حاسم لان خلافات تنشأ فيما بينها

---

(١) حرب ثلاثمائة سنة، ص ٧٢

بسبب تعارض مصالح هذه الدولة بتلك ،فنتج عن هذا الاختلاف أن تتصرف كل دولة وما تراه ازاء الجزائر .وفي هذه الفترة الوجيزة استطاعت الجزائر أن تكتسب صفة الزعامة على سائر نيابات المغرب الاخرى ،واعترفت أوربا لها بذلك وأصبحت تدفع لها الضرائب ،وتقدم لها الهدايا ..وكثيرا ما تعلن الجزائر الحرب عليها أو على بعضها عندما تتأخر في دفع تلك الضرائب والهدايا .وأكثر الدول التي كانت تتعرض لنقمتها هي اسبانيا والبرتغال والمدن الايطالية ،والدول الاسكندنافية .

ولهذا كانت تضطر الى دفع مزيد من الضرائب كل سنة وتعقد معها علاقات الصداقة باستمرار حتى تتقي غضبها واخطار أساطيلها .

وهكذا فان كل دولة تبعث قنصلا ليمثلها بالجزائر ،لا بد أن تبعث معه أموالا وهدايا تختلف قيمتها باختلاف مركز تلك الدول والاخطار التي تهدد أساطيلها ومصالحها التجارية .

فامريكا كانت تدفع عشرة آلاف دولار نقدا ،وهدايا قنصلية تقدر قيمتها بحوالي أربعة آلاف دولار .وبريطانيا ..وفرنسا .. (١)

اكتسبت الجزائر هذه المنزلة بسبب أسطولها وجرأتها ،ثم بسبب الاختلافات التي كانت سائدة بين دولة وأخرى .فمثلا أن فرنسا أعلنت الحرب على مصر سنة ١٧٩٨ ،فكان ان امتعضت انجلترا من فرنسا ،ووقع بينهما تناوش فانشغلت الدولتان بمشاكلهما وسكتتا عن الجزائر وما لها من هيمنة ،ولكن كان سكوتهما موءقتا ،بدليل أن اقتراحا كان قد حدث في ٣ يوليو من عام ١٧٩٧ يدعو الى (انشاء مستعمرات حديثة في الشمال الافريقي وفي الجزائر بالذات) (٢) .رأت الحكومة الفرنسية أن الوقت غير ملائم ولذلك تغافلت عن الاقتراح ، (واهتمت فقط بتنفيذ مشروع الحملة على مصر ،وحرصت على ابقاء علاقات الود مع الجزائر وبقية الشمال الافريقي ،حتى تبقيها على الحياد في نزاعها مع بريطانيا ابان الحملة على مصر عام ١٧٩٨ ... ولكن الجزائر ودول المغرب سرعان ما أعلنت عليها الحرب في الفترة من أواخر ديسمبر عام ١٧٩٨م الى أوائل مايو عام ١٧٩٩م بسبب تلك الحملة ،وأسرت وطردت القناصل والرعايا الفرنسيين وصادرت ممتلكاتهم) (٣) .

---

(١) الموجز في تاريخ الجزائر :يحي بوعزيز ، ص ١٤٥

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٥

(٣) المصدر السابق ،ص ١٦٥ .

وقد اقترح أحد ساسة فرنسا على نابليون بونابرت أن يعد حملة ضد الجزائر سنة ١٨٠١ (ولكن بونابرت رفض أن يفتح جبهة جديدة للحرب وهو ما يزال يعاني من حملة مصر واتعاب الانجليز ضده .

وحين انجلى الموقف وبدأت التمهيدات للصلح بين فرنسا وبريطانيا في لندن عام ١٨٠١ تحول اهتمام فرنسا مرة أخرى الى الجزائر لتكون كتعويض لها عن ضياع مصر) (١) .

وبعد هذه الفترة ظهر خلاف جديد بين فرنسا وعدد من الدول ثم ظهر مرة أخرى مع انجلترا .وكانت فرنسا تميل الى السلم متى ظهرت بوادر النزاع مع غيرها من الدول ،وتميل الى الوعيد اذا أنست صلحا دائما .وهكذا تتقمص ثوب الصديق المتعاون مرة ،وتتقمص ثوب العدو اللدود مرة أخرى حسب الظروف والاحوال الى أن خلا لها الجو لتنقض على الجزائر التي كانت تحلم باحتلالها منذ زمن بعيد .
وساعدها الحظ باختفاء كثير من الذكريات النابولونية التي كانت تمقتها أوربا (٢)

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥

الباب الثالث

عصر النهضة

المشرق العربي

الفصل الاول : الحملة الفرنسية على مصر .

يبتدئ عصر النهضة العربية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر اثر خروج نابليون بونابرت من مصر وظهور محمد علي على المسرح السياسي في المشرق العربي ،وخاصة مصر .

شاهد المصريون في السنوات الثلاث (١٧٩٨ - ١٨٠١) التي قضاها بونابرت في بلادهم ما جعلهم يذهلون من أمر هذا القائد الغازى ،اذ جاء بكل مرافق الحياة من مطبعة ،وعلماء ..وكان غرضه أن يجعل مصر نقطة انطلاق الى آسيا ،وخاصة الهند ليحول بين ثروات تلك البلدان ومطامع الانجليز .

وبعد أن سيطر بجيشه على المماليك تظاهر أمام الشعب المصرى بالمسالمة وتقرب بعض ضباطه الى الاسر المصرية متقمصين ثوبا اسلاميا ،ولكن أعيان مصر لم يتورطوا ،وفطنوا الى ما تكنه نفوس القوم .

في هذه الفترة كانت ثلاث قوات عسكرية تقف في وجه نابليون: (١) قوة المماليك في مصر . (٢)قوة الجيش العثماني الذى بعث به الصدر الاعظم من الاستانة لمحاربة الفرنسيين . (٣) ثم قوة الجيش الانجليزى .

استطاعت هذه القوات الثلاث أن تناوش جيش نابليون وأن تحدث في صفوفه بلبلة الى أن كانت موقعة أبي قير البحرية التيوقعت بين الانجليز والفرنسيين ، وانتصرت البحرية الانجليزية على البحرية الفرنسية ووقعت بين الطرفين معاهدة تنص على انسحاب الجيشين من مصر .أما فرنسا فقد خرجت فعلا ،واما انجلترا فقد أخذت تماطل ثم خرجت سنة ١٨٠٣ تحت الحاح نابليون .

نتائج الحملة الفرنسية

كان لحملة نابليون على مصر نتيجتان. احداهما سيئة والثانية حسنة

(١) تبدو النتيجة السيئة في تدهور الاقتصاد المصرى، وذلك لعدة عوامل. منها :

أولا: الحصار الذى ضربه الاسطول الانجليزى على الموانى المصرية ليقيد نشاط الحملة الفرنسية.

ثانيا : ان البلاد كانت ميدانا للقتال في الشمال بين جيشين نظاميين : جيش العثمانيين الذى زحف من سوريا، وجيش الفرنسيين.

ثالثا : ان ثورات عدة قامت في صعيد مصر ضد الفرنسيين.

رابعا : ان ثورتين حدثتا في القاهرة بتحريض من العلماء والمماليك والعثمانيين ضد الفرنسيين.

كل هذه العوامل كانت سببا في الفقر وتدهور الاقتصاد في البلاد مما جعل السلطات الفرنسية تثقل كاهل الشعب المصرى بالضرائب الفادحة، كفعل المماليك من قبل.

(٢) وتتجلى النتيجة الحسنة في عدد من المظاهر.

أولا : ايقاظ الشعور المصرى، وادراكهم للخطر الذى يتهددهم من قوم غرباء ليسوا على دينهم، ولا هم من جنسهم، وخاصة بعد أن رأوا تلك المقاومة الباسلة التي أبداها المماليك الى أن استشهد منهم خلق كثير.

ثانيا : تطلع المصريين الى مستقبل أفضل، وذلك بسبب ما شاهدوه من تقدم الفرنسيين في جميع الميادين، وساعدهم على هذا التطلع ما كان قد خططه نابليون من سياسة ونظام، فقد أنشأ ديوانا يضم تسعة أعضاء من المشائخ والعلماء ينظرون في أمور الرعية، ويرجعون الى الحاكم الفرنسي في القاهرة ليقول كلمته الاخيرة. وكان نابليون كثير الاحترام لقرارات مجلس الديوان.

ويعد هذا الديوان حدثا جديدا في تاريخ المصريين، وذلك لانهم شعروا، ولاول مرة بالعدالة الاجتماعية التي لم تكن في يوم ما في حسبانهم، بسبب حرمانهم منها طول العصور الماضية باستثناء فترات قليلة متقطعة.

ثالثا : ارتفاع المعنويات في نفوس المصريين بسبب اشتراكهم في بعض الشئون الادارية.

رابعا : اكتشاف المصريين لانفسهم بأنهم كغيرهم من الامم. ففي استطاعتهم أن يسيروا أنفسهم بأنفسهم لو أتيحت لهم الفرص(١).

الفصل الثاني : العرب والاستعمار في القرن التاسع عشر.

في القرن التاسع عشر وصل العرب الى مرحلة حاسمة في تاريخهم اذ واجهوا أطماع الدول الاستعمارية على اختلاف أجناسها، وهي كلها قوية، أو في طريق القوة والعرب ضعفاء، أو مستضعفون.. وفي هذا القرن كانت الدولة العثمانية تبسط نفوذها على أكثر الشعوب العربية وتتزعم الدفاع عنها وعن الدول الاوربية التي كانت قد استولت عليها كاليونان، ورومانيا، وبلغاريا، والبانيا، وأجزاء من المجر.

وقد صبغ العثمانيون احتلالهم للدول الاوربية بصبغة دينية، وفهم غرضهم، ولذلك تعصبت ضدهم أمم الغرب، وأخذوا في مناصرة بني جلدتهم بكل الوسائل، الى أن أضعفوا الدولة العثمانية وجعلوها تتقلص شيئا فشيئا من تلك الدويلات الى أن انحصر الحكم العثماني نهائيا في الرقعة التي تحت يد تركيا الحالية.

وفي المشرق العربي حدث تناوش للاتراك العثمانيين من بعض الشعوب وخاصة لبنان. وكان شعار هؤلاء العرب في مناوشاتهم تلك. يقوم على مصطلح جديد دعوه " العروبة " . والعروبة لواء لجميع العرب، ولذلك استغلت كلمة العروبة، وأخذ دعاتها يروجون لها ويدعون العرب الى أن يتخذوها سلاحا لهم ليحققوا الانفصال التام عن الدولة العثمانية التي أصبحت في هذا القرن ضعيفة بسبب الضربات القاسية التي كانت تتلقاها من روسيا ومن دول البلقان، فنشأ ما عرف في التاريخ بالمسألة الشرقية.

المسألة الشرقية

تعقدت الامور بالنسبة لتركيا بسبب موقف روسيا والدول الاوربية ضدها من جهة، وموقف الشعوب العربية ومناوشاتهم لها من جهة أخرى، فكان أن نشأ ما يسمى بالمسألة الشرقية وهي ذات اتجاهين، اتجاه روسي أوربي تركي، واتجاه آخر عربي تركي. أما الاتجاه الاول يقوم على مطامع روسيا، ومخاوف انجلترا من هذا التوسع، وضعف تركيا. ونتج عن كل ذلك أن حدث تحالف بين روسيا والنمسا من جهة، وبين انجلترا وبروسيا وهولندا من جهة أخرى. كل حلف ضد الحلف الآخر.

(١) يراجع الفصل السابق في كتاب تاريخ مصر الحديث من ص ١٩ الى ص ٥٦ تأليف محمد عبد الرحيم

وجمع هذه الاحلاف ضد تركيا ،واذا كان هناك خلاف بين حلف وآخر فانما هو من أجل اطماع أكبر في التركة التي سوف تقسم أسهما والقوى يحظى بأوفر قسط من تركة الرجل المريض كما كان يسمى عند القوم وهم يعنون بطبيعة الحال تركيا آل عثمان.

دارت حروب بين روسيا وتركيا وتلتها معاهدات أغلبها في صالح الروس ثم تدخلت انجلترا وفرنسا في صالح تركيا ثم كانت كل من انجلترا وفرنسا مع العرب ضد تركيا ،وأخيرا انضمت تركيا الى جانب المانيا والنمسا في الحرب العالمية الاولى ،فكان ان انهزم المحور وانتصر الحلفاء ،وبذلك قضت تركيا على نفسها ، فوجدتها بريطانيا فرصة سانحة لتقتطف كثيرا من أملاك تركيا في آسيا.

في هذا الوقت الذى كان الرجل المريض يتلقى الضربات القاسية من أعدائه الاوربيين كان في نفس الوقت يتصارع مع العرب في المشرق العربي ،بدعوى أن العرب لم يتمتعوا بحقوقهم المشروعة تحت ظل الحكم العثماني الى أن استقل عدد من الدول العربية مثل مصر ،واليمن ،والجزيرة العربية.

استقلت هذه الدول العربية باسم العروبة ،كما استقلت دويلات البلقان باسم القومية ،وكان يغذى مبدأ القومية العربية والقومية الاوربية كل من الانجليز والمتفتحين اللبنانيين ،وذلك لعدة أسباب.

أولها : ان الدولة العثمانية كانت تحارب الدول المجاورة لها باسم الدين.

ثانيها : أن الدولة العثمانية كانت تنظر الى اللغة العربية نظرة غير التي تنظر بها الى اللغة التركية ،فنتج عن ذلك أن أصبحت اللغة التركية لغة رسمية ، بينما اللغةالعربية يتدارسها القوميون العرب بطرقهم الخاصة حتى لا تندثر، وأصبحت كأنها لغة ثانوية أو غريبة.

ثالثها : ان الشعوب العربية في المشرق تحوى طوائف متعددة في المذاهب الاعتقادية والاتجاهات السياسية .والعروبة أم رؤوم تجمع كل هذه الطوائف.

وقد تولد عن هذه الاسباب الثلاثة ظهور الجمعية الماسونية وسارع اليها عدد كبير من ذوى المذاهب والمناصب لانها اتخذت الاخاء والحرية والمساواة شعارا لها ،غير أن هذه الجمعية لم تخدم القضايا الوطنية العادلة ،انما اكتفت بمساعدة الضعفاء والمحتاجين ،ولذلك انسحب منها عدد كبير من المفكرين ، وفي مقدمتهم جمال الدين الافغاني ،لان مثل هذا الزعيم ينشد الجمعيات الثائرة التي تطالب بحقوق الشعوب المهضومة لا الجمعيات التي تدعو الى الكسل تحت شعار انساني براق.

وتحت هذا الخضم من المد والجزر التي عاشتها تركيا والدول التي جاورتها او كانت تحت حكمها تولد وعي جديد وتجسم في رواد النهضة في شتى الميادين كما سنرى.

الباب الرابع

رواد النهضة

الفصل الاول : رائد النهضة في مصر.

للنهضة العربية الحديثة ميادين متعددة .وكل ميدان يمثله رائد أو أكثر. وسنقتصر على عدد من الميادين وعلى عدد من الرواد ،وكل رائد يمثل ميدانا خاصا ،بعضهم في المشرق العربي أو الاسلامي وبعضهم فيالمغرب العربي.

الميدان العسكرى والسياسي في مصر

يمثل الميدان العسكرى والسياسي محمد علي في المشرق العربي والاسلامي وخاصة مصر.

كانت الحالة العسكرية والسياسية في مصر تنذر بالخطر .فالوضع السائد قد تدهور ،لان القوات الثلاث التي تقدم ذكرها قد اشتد صراعها فيما بينها ،ثم ظهرت قوة رابعة وهي قوة محمد علي الذى ظهر فجأة على مسرح الاحداث .فقد كان في أول الامر خاضعا لاوامر الاستانة ،ثم رنا ببصره الى عرش مصر ،ولكنه أدرك ما ينتظره من الصعاب ،سواء في الداخل أو في الخارج ،فرأى أن يلعب دورا بطوليا في معترك الحياة عسى أن يزحزح من هم في مستواه أولا ثم يزاحم الذين هم أعلى منه درجة .ولم لا وهو خريج مدرسة الحياة نفسها ؟اذ لم يقرأ في المدرسة التقليدية كغيره ممن يسيرون أمور الناس بالاقلام .ورأى سذاجة في هؤلاء الذين يدعون الثقافة والفهم .وكم لهم من أخطاء .فتركيا العثمانية .الم تكن امبراطورية عظمى؟ وها هي تتقلص يوما فيوما .وطمع فيها من كان بالامس تحت رحمتها. واذن فلم لا يضرب محمد علي ضربته ،وفيه صفات الزعامة؟. ها هو محمد علي يضع سياسة على خطة مرسومة تتمثل في الخطوات التالية :

انضم محمد على أول الامر الى الانجليز وذلك ليحرر مصر من الفرنسيس. ولما تم ذلك وخرج الفرنسيون من مصر نهائيا بعد انهزامهم في معركة أبي قير البحرية ،رأى مرة أخرى فاذا هو أمام قوة قديمة هي قوة المماليك الذين كانوا ولا يزالون يحكمون البلاد ،وقد استقلوا بمصر ،وأصبح بايديهم الحل والعقد ،حتى ساء هذا الوضع قادة الدولة العثمانية .وأظهر محمد علي حماسا كبيرا ازاء هذه الظاهرة التي لا ترضي طموحه ،وفي نفس الوقت لا يرضي الاتراك الذين هم يعلقون آمالا كبيرة على محمد علي ،عسى أن يقضي بدهائه المعروف على هذه القوة المتغلغلة في أعماق مصر منذ زمن بعيد.

وكان محمد علي يعرف نوايا الاتراك ونوايا المماليك على حد سواء ورأى أن الحكمة تقضي بأن يسير رويدا رويدا ،فيبدأ بالمماليك أولا ثم يخطو مع العثمانيين خطوات أخرى وبطريقة تدريجية معتمدا على المبدأ القائل " ان الغاية تبرر الوسيلة ".

تـطـور الاحــداث

بعد انسحاب الفرنسيين ظهرت قوات أربع .

(١) قوة الانجليز .(٢) قوة العثمانيين بقيادة خسرو .(٣) قوة الجيش الالباني بقيادة محمد علي .(٤) قوة المماليك .

أما قوة الانجليز فقد ترك أمرها الى المعاهدة الفرنسية الانجليزية التي وقعت بين الطرفين سنة ١٨٠١ .وفعلا فقد خرج الانجليز بناء على تلك المعاهدة ولكن في سنة ١٨٠٣ وبالحاح كبير من الفرنسيين .

وبخروج الانجليز من مصر لم يبق فيها الا قوات ثلاث : قوات العثمانيين في الاسكندرية ،وقوة المماليك في عدد من مدن الصعيد المصرى .

أما قوة محمد علي فقد حافظ عليها في القاهرة ،وبذلك أبعدها عن القلاقل التي سوف تحدث بين جيش العثمانيين والمماليك .وفعلا حدث قتال عنيف بين الجيشين ،وانتصر المماليك على العثمانيين .

ساء هذا الانتصار القادة العثمانيين في كل من مصر والاستانة وأدركوا أن السبب الحقيقي يرجع الى الموقف السلبي الذى وقفه محمد علي من الجيشين المتحاربين ،كأنه نسي بأنه لا يزال خاضعا لاوامر الاستانة ،وأنه لم يستقل بعد بمصر كل الاستقلال ،وفي نفس الوقت كان محمد علي يقدر الاخطار المحدقة به وأن الحالة في مصر تسير من سيء الى أسوأ ،وأن عليه مع ذلك أن يتريث وأن يكون حذرا ،حتى لا يكون سببا في غضب أولي الامر ،أو يرمي بنفسه في أتون الحرب التي قد تدار من جديد بين قوة العثمانيين والمماليك ،ولكن خسرو القائد العام للقوات العثمانية أمر محمد علي باسم الصدر الأعظم أن يشارك في المستقبل في مقاتلة المماليك بجيشه الالباني ،فكان أن تودد محمد علي الى المماليك وسالمهم ولم يدخل في قتال ضدهم حتى مكنهم من الانتصار على العثمانيين .

ومرة أخرى استاء خسرو وقادة الدولة العثمانية في الاستانة ،فرأى خسرو أن يقضي على محمد علي بالحيلة ،فبعث اليه ليقابله ليلا ولكن محمد علي فطن لما يدبر له في الخفاء ،فأبى الذهاب إلا نهارا وعلى رأس جيشه ،وأخيرا انتصر المماليك على العثمانيين انتصارا نهائيا ،وفر خسرو الى سوريا ،ولم يبق في مصر الا جيشان : جيش المماليك وجيش محمد علي .

تبين للسلطان بالاستانة أن محمد علي يسير في اتجاه معاكس لسياسته في مصر ،وأن التخلص منه أصبح ضروريا .فرأى أن أحسن طريقة يستعملها معه أن يقذف به وبجيشه الى الحجاز حيث الوهابيون الذين أخذوا يسودون المنطقة وينشرون أفكارهم الجديدة التي تتنافى وأفكار آل عثمان .

أدرك محمد علي أن السلطان يريد أن ينفرد بمصر بأى طريقة كانت ،وكأن مصر قد أصبحت ميدانا للمبارزة بين قوتين متعاديتين ،قوة العثمانيين ،من جهة، وقوة محمد علي من جهة أخرى .والذى ينتصر على خصمه تكون له الغلبة المطلقة والى أمد بعيد .

رأى محمد علي أن القوتين غير متكافئتين ،وخاصة اذا علمنا أن العثمانيين يكونون عنصر الاصالة ،لانهم استولوا على مصر منذ زمن بعيد ،ثم أن محمد علي نفسه ان هو الا صنيعة آل عثمان ،فهو قد جاء ضمن جنود الالبانيين لاخراج الفرنسيين لا لشيء آخر .

هذان عاملان يدركهما محمد علي الى جانب العامل الثالث الذى يتمثل في قلة جنده ..رأى محمد علي أن يلجأ مرة أخرى الى الحيلة والدهاء ،ليبقى واليا على مصر بطريقة مرضية لا تثير غضب أحد من ساسة تركيا ،أو على الاقل لا تجعلهم يفهمون صراحة ما يخفيه في نفسه ،فكان يماطل قادة تركيا ،وفي نفس الوقت كان يتقرب الى أعيان مصر وعلمائه ليحصل منهم على وثيقة موقعة بخطهم وفيها : أن محمد علي رجل صالح لان يتولى شئون مصر تحت رعاية تركيا ،وأن المصريين يرغبون فيه ويرجون من المسئولين الاتراك الموافقة عليها .

استجاب السلطان لمطالب المصريين على مضض رجاء أن تتغير الاوضاع فتصبح في صالحه فيعزل محمد بسهولة .

مــؤامـــرة

استمر المد والجزر بين الباب العالي ومحمد علي بعض الوقت ،وكل واحد منهما يتربص بالاخر الدوائر .

في سنة (١٨٠٥) ظهر للباب العالي أن يعزل محمد علي قبل أن يستفحل أمره ،فرأى هذا أن وقت الاستقلال بمصر لم يحن بعد ،وعليه أن يتظاهر بالرضا والقبول أمام المسئولين الاتراك حتى لا يعزل عنوة ،فلجأ الى استعمال الدهاء مرة أخرى ،وفي هذه المرة أعلن استياءه من الاتراك أمام قوتين هامتين .قوة العلماء المصريين ،وقوة ضباطه وجنوده .

أما العلماء فقد كتبوا عريضة جديدة الى الباب العالي يلتمسون منه مرة أخرى أن يكون محمد علي واليا على مصر .

أما الضباط فقد عاهدوا الله على الدفاع عنه .

وفي هذه الاثناء كان الاتراك العثمانيون يدرسون الوضع الداخلي في مصر ، والوضع الخارجي في الدول المتناحرة ،فوجدوا الاحوال متوترة هنا وهناك .فالوضع الداخلي لا ينبيء بالتفاؤل ،لان المماليك قوم لا يوثق بهم ،لما جبلوا عليه من الانانية والفوضى وأحداث الاضطرابات .أما الوضع الخارجي فينذر بانفجار الحرب ان عاجلا أو آجلا ،لذا اعترف الباب العالي من جديد بولاية محمد علي .

النتيجة التي حصل عليها محمد علي منذ وفادته جنديا ابان الحملة الفرنسية على مصر الى هذه السنة (١٨٠٠) انه زحزح جميع القوات المعادية له ولم يبق أمامه الا قوة واحدة هي قوة المماليك .

ان قوة المماليك قوة لا يستهان بها فقد الفت التمرد والمشاغبات واحداث القلاقل والبلبلة في النفوس ،فهم يتسمون بصفتين متناقضتين أولاهما العلم بالفروسية وما يتصل بها من شجاعة واقدام .والصفة الثانية الجهل بما يدور في الخفاء ضدهم .

ومحمد علي داهية ويعتنق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ،لذا رأى أن يتخلص من المماليك بالحيلة . .

محمد علي ومذبحة المماليك

تأكد محمد علي من أن جيشه أقل عددا وعدة ودراية بأساليب الحرب من المماليك الذين تمرسوا على فنون القتال والفروسية بسبب المران وطول المدة التي قضوها في الحروب والفتن والمشاغبات .كي ينجح محمد علي في تنفيذ حيلته عمد الى استدراج المماليك الى القلعة في أعلى مكان بالقاهرة ،وزعم لهم أن وليمة سيقيمها هناك بمناسبة تعيين ابنه طوسون قائدا عاما لجيش سوف يرسل الى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين .

وفي يوم الجمعة أول مارس سنة (١٨١١) أقبل رجال الدولة والمماليك الى القلعة ،وهم في أفخر لباسهم ،دون أن يدور بخلد أحدهم أن هذا اليوم المبارك سيكون يوما للغدر والخيانة .

كانت الخطة التي وضعها محمد علي أن يقضي على المماليك بعد انصرافهم من الوليمة وهم واثقون بأن الجو مملوء بالمحبة والمسرة ،فاوعز الى خلصائه بأن يغلقوا الباب متى انفرد المماليك في المسيرة وامتازوا عن غيرهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم .وفي طريق ضيق بين جبلين أمطروا بوابل من الرصاص ،وقضوا نحبهم في حينهم ،وكانوا زهاء خمسمائة جندي وقائد .

نتج عن هذه المجزرة أن فر بقية المماليك الى سوريا أو السودان وذابوا هناك في الاهالي .هذا من جهة ،ومن جهة أخرى ،فان جنود محمد علي انسابوا في الشوارع ينهبون ويرتكبون الجرائم .واستمروا على هذه الحالة مدة أسبوع حتى بعثوا الذعر في نفوس الاهالي .ولم يكفوا عن أفعالهم الا عند ما رأوا محمد علي نفسه ينزل الى الشوارع ليضع حدا لجنده .

ومن جهة ثالثة ،فقد تغيرت نظرة المصريين نحو محمد علي الذى أخذت نواياه الخفية تظهر للعيان . .

أعمال محمد علي

رأى محمد علي أن ينهض بمصر في عدة ميادين ،ليحقق هدفين اولاهما : أن يقوى مركزه ،وأن يمحو سيئاته التي ظهرت جليا في مذبحة القلعة . ثانيهما : أن يجعل مصر تشبه أوربا في الابهة والعظمة ،فكان أن وضع نصب عينيه ثلاثة ميادين هي : الميدان العسكرى ،ثم الميدان الاقتصادى ،وأخيرا الميدان الادارى .

الميدان العسكرى :

((أرسل محمد علي أحد عشرة بعثة ،آخرها (١٨٤٧) وكان شديد العناية بأعضاء البعثات ،يتقصى أنباءهم ،ويشرف على دراستهم باهتمام ،ويكتب لهم من حين لاخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ،وينبههم الى واجبهم وذلك لشدة حاجته في نهضته الى من يقف بجانبه ،ويتفقد مشروعاته الضخمة)) (١)

---

(١) في الادب الحديث ،عمر الدسوقي ،ج ١ ،ص ١٩

(أول بلاد بعث اليها محمد علي بعوثا علمية هي ايطاليا ،فقد أوفد سنة (١٨١٣) ٠٠ عدة تلاميذ لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن ،والطباعة ،والهندسة ، وغيرها ٠٠) (١)

ثم تحول نظر محمد علي عن ايطاليا الى فرنسا ،فأرسل اليها طائفة من التلاميذ حوالي سنة (١٨١٨) ٠(٢)

ولما رجع هوءلاء أفادوا مصر في جميع مرافق الحياة ٠واشتهر منهم عدد كبير مثل :رفاعة الطهطاوى الذى أرسل على رأس بعثة ليكون اماما ٠وعثمان نور الدين الذى أظهر إخلاصا لوطنه ،وتفوقافي العلم الى حسن السيرة والسلوك ٠

وبهذه الخصال فقد فرض نفسه على الذين اتصل بهم وعرفوه عن كثب فأحبوه واعترفوا له بمناقبه وأثنوا عليه في السر والعلانية ،حتى سمع به محمد علي نفسه فأحبه هو بدوره وأصبح (لايناديه الا بلفظة " ولدى عثمان " ولا يكتب له الا بها ٠وبنى له منزلا بجواره ٠٠ليكون على مقربة منه ،ولقبه على اثر ما ظهر من مهارته الحربية برئيس البر والبحر ٠ولما ثارت جزيرة كريت (٣) وأراد محمد علي ادخال أهلها في النظام العسكرى ،أرسل عليها عثمان نور الدين باشا هذا بقوة عسكرية فأخضعها بعد أن أعطى روءساء الفتنة عهد الأمان على أرواحهم وأموالهم ،فلم يوافقه على ذلك محمد علي ،وصمم على قتلهم ،فحار عثمان باشا في أمره ولم يجد مخرجا من هذا الا بترك خدمة مولاه ٠فتركها وهرب من جزيرة كريت الى الآستانة سنة ١٨٣٣م وأقام بها الى أن مات رحمه الله) (٤)

الميدان الاقتصادى

تقوم سياسة محمد علي في الميدان الاقتصادى على مبدأين رئيسيين (أولهما : تحقيق الاستقلال الاقتصادى للبلاد ٠وثانيهما : اتباع مذهب الاشتراكية الحكومية) (٥)

(١) البعثات ،ص ١٠ : عمر طوسون
(٢) نفس المصدر
(٣) كريت مدينة يونانية قديمة احتلها العرب سنة ٨٢٦م واحتلها الاتراك سنة ١٦٦٩م ثم اجبرت تركيا بالانسحاب منها سنة ١٨٩٨
(٤) البعثات العلمية ،ص١١
(٥) تاريخ مصر الاقتصادى ،ص ٨٧ محمد فهمي ٠

وعلى الاساسين برز محمد علي أمام أعين الشعب في ثوب الولي لامر المزارعين المصريين جميعا ،فنزع الملكية بدعوى انه يمثل سلطة دينية كالتي كانت للخلفاء أيام الفتح الاسلامي ٠(استولى على أراضي المماليك في الوجه البحرى بعد أن طردهم الى الوجه القبلي عام ١٨٠٧) (٢) ٠وبقي أمامه نوعان من الاراضي نوع خاص بالوقف ٠ونوع يمتلكه ذووه ٠

النوع الاول :كان تحت رعاية المشائخ ٠فرأى محمد علي أن لا يتعرض لمبدأ الوقف اذ هو شائع معروف ،ومنصوص عليه في الفقه الاسلامي ،لذا وضع نفسه مسئولا عن هذه الاوقاف ،وبذلك حل محل المشائخ على الرغم من معارضتهم له معارضة شديدة ،ولكن دون جدوى ٠

والنوع الثاني :من الاراضي التي يمتلكها أصحابها ،فقد طالب كل واحد أن يثبت حق الملكية بوثيقة رسمية (ولما أبرزوها أظهر بطلان أكثرها ،ووعد البعض بإعطائهم تعويضا ماليا عن أراضيهم ،ثم أحرق جميع الوثائق والحجج الخاصة بهذا الشأن) (١) ٠

ابتكر محمد علي طريقة لجمع ما تنتجه الارض من المحاصيل ،حتى تصبح جميعها في يده ٠والطريقة تتمثل في إنشائه مخازن كثيرة في أماكن متفرقة ،وتوضع تلك المحصولات في تلك المخازن ثم يأتي عمال محمد علي (ويقدرون أثمان كل نوع من المحصولات ،ويوءخذ جزء نظير الضرائب المطلوبة ،وتشترى الحكومة الباقي ، فتستعمل بعضه في مصانعها ،وتبيع الباقي الى التجار الأجانب ٠

وبهذا احتكر محمد علي التجارة فأصبح التاجر الوحيد ،وجنى من هذه الطريقة أموالا طائلة مكنته من القيام باصلاحاته العظيمة ،وحروبه الكثيرة) (٢)٠

ونتج عن هذا التخطيط الاقتصادى أمران متغايران ٠أحدهما حسن ويظهر في الفائدة التي جنتها مصر وعلى رأسها محمد علي ٠الامر الثاني كان سيئا للغاية ، اذ لم يجن الفلاح المصرى على عهد محمد علي الا الشقاء والتعب ،فقد أصبح كالأجير يعمل من أجل سد الرمق ،وخاصة اذا علمنا أن عمال محمد علي كانوا يسلطون عليه ألوانا من الظلم باسم السلطان (فكانوا يستعملون موازين مغشوشة ، ثم يبخسون ثمن المحصولات) (٣) ٠

(١) تاريخ مصر الحديث ،ص ٠٩٦
(٢) تاريخ مصر الحديث ص٩٦
(٣) تاريخ مصر الحديث ،ص٩٧ ٠ويراجع تاريخ مصر الاقتصادى ص ٠٨٧

الميدان الاداري

أنشأ محمد علي عددا من المجالس والدواوين على غرار ما عرف من النظم الادارية الفرنسية في حملة نابليون.

رأى محمد علي أن مشاكل السكان أخذت تتعقد ،والمصريون قد تمتعوا بشيء من الديمقراطية التي تتمثل في الادارة ابان الحملة الفرنسية ،وهم لم ينسوا بعد بأن أمورا مهمة قد أسندت اليهم ليتدربوا على ممارسة تطبيق العدالة الاجتماعية في شتى المشاكل التي تعترض الانسان المصري.

على هذا الاساس أنشأ محمد علي مجلسا أعلى يتولى رئاسته هو بنفسه. والى جانب هذا المجلس الاعلى فقد أنشأ ديوانا يتعلق بشئون التعليم وآخر للتجارة ،وديوانا للصناعة وديوانين عسكريين. أحدهما يتعلق بالشئون البحرية، والاخر يتعلق بالشئون الحربية.

وبهذه الدواوين يكون محمد علي قد استطاع أن ينظم الشئون المصرية الادارية ،وأن يخطو بها خطوة جديدة نحو التقدم الحضاري اذ بأعماله الادارية هذه يكون قد انتشلها من الفوضى والاضطرابات التي عاشتها مصر في العصور الغابرة أيام المماليك.

طبيعة محمد علي

مما تقدم نفهم أن طبيعة محمد علي لم تخرج عن أساليب الاتراك الذين عرفوا بتدبير المؤامرات وتقديم المصالح الشخصية على المصالح العامة. وان مبدأهم جميعا يقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة ويتجلى هذا في مقتلة المماليك، وفي احراق الوثائق المتعلقة بامتلاك الاراضي ،الى جانب تمرده على سلاطين آل عثمان في الآستانة.

اما ما يقال عن البعثات التي بعث بها الى الخارج فانه فعل بدافع الطموح حتى يقال عنه إنه عظيم ،وانه صانع مصر. ومصر بلد قديم له حضارته ،فاذا لم تظهر هذه الحضارة في الشعب المصري على عهد محمد علي فذلك يرجع الى النوائب التي مرت بهذا الشعب ،ولما جاء محمد علي ايقظ ما كان كامنا في نفوس المصريين.

ويظهر ذلك في الفوائد الكبرى التي رجعت على المصريين بعد رجوع البعثات من الخارج ،فقد أثروا في التفكير المصري. ونما هذا التفكير شيئا فشيئا الى ان اثمر اخيرا في العهود المتأخرة.

الاسرة العلوية

توفي محمد علي سنة ١٨٤٩ وخلفه في آخر حياته حفيده عباس الاول ١٨٤٨ – ١٨٥٤ ثم جاء محمد سعيد ١٨٥٤ – ١٨٦٣ ثم اسماعيل ٦٣–٧٩ ثم توفيق ٧٩ – ٩٢ فعباس الثاني (عباس حلمي) ٩٢ – ١٩١٤ ثم أصبحت مصر حماية انجليزية وعين حسين كامل ١٤ – ١٧ سلطانا ثم أصبحت ملكية سنة ١٩٢٢ بعد الثورة المصرية التي حدثت سنة ١٩١٩. وكان فؤاد قد تولى السلطنة بعد وفاة أخيه حسين كامل من ١٩١٧ الى أن عين ملكا سنة ١٩٢٢. وآخر من تولى عرش مصر من أحفاد محمد علي الملك فاروق بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٦ الى ١٩٥٢.

الفصل الثاني

رائد النهضة في الجزائر

الامير عبد القادر

الامير عبد القادر والغزو الفرنسي للجزائر :

ظهر الامير عبد القادر على المسرح السياسي والعسكري في ظروف صعبة. فالفرنسيون قد ثبتوا أقدامهم في عدد من المناطق الهامة، وأخذوا ينتشرون هنا وهناك ليستولوا على كامل القطر الجزائري. وكان المواطن الجزائري تعوزه وحدة الشعور، ووحدة النضال، ليقاوم الزحف الاجنبي على بلاده. وكان سبب التباعد الذي شل جسم المواطنين الجزائريين يرجع الى النظام الاداري الذي كان سائدا آنذاك، ويتلخص في الشئون الادارية التي كانت تخضع للاتراك، وفي مقدمتهم الداي.

فلما استسلم الداي للفرنسيين سنة ١٨٣٠ انفصل كل حاكم عن الادارة المركزية بالعاصمة، واستقل بما تحت يده، وأصبح المسئول الاول عن الولاية التي يحكمها. وهنا برزت المقاومة الجزائرية في أسلوب جديد وتفرع هذا الاسلوب الى نوعين من القتال. نوع يتخذ شكلا نظاميا له ادارة وميزانية وجيش مدرب وقادة ورؤساء ومسيرون.. ويتزعم هذا النوع من المقاومة أحمد باي حاكم قسنطينة. والنوع الثاني يتخذ شكلا تطوعيا، وظهر هذا النوع في الغرب الجزائري بزعامة الامير عبد القادر.

وايا كان الامر فان مثل هذا الكفاح لا يمكن أن يتغلب على جيش نظامي ثبت أقدامه في عدد من المدن، وأخذ يزحف نحو مناطق أخرى.

ففي هذه الاوضاع المعقدة تقلد الامير زمام الامور، وحاول أن يجمع كلمة الشعب ليزحف على الاعداء، فوجد صعوبات جمة تعترى طريقه. ففي كل ناحية يصطدم بعدد من العائلات، يقال عنها: إنها تضاهي عائلة الأمير في الشرف وعلو المنزلة، ولم يستطع الامير أن يتغلب على هذه العائلات الا بعد جهد جهيد. ويمكن حصر أسباب التفرقة في أربعة.

أولها : ان الذين يحكمون الجزائر كانوا في الاقاليم النائية، يتمتعون بسلطة مطلقة فهم القواد، وهم القضاة، وهم الجباة. فكلمتهم لا ترد، وحكمهم نافذ. فمن شاءوا أنقذوه، ومن شاءوا أغرقوه. فالجزاء عندهم ليس من جنس العمل، وحسب نوع الاتهام، انما حسب أهوائهم وأغراضهم. وبشيء من التأمل في أسماء الامكنة التي لا تزال باقية في بعض المدن مثل (باب الضرب) ندرك أن المكان كان قد خصص لتاديب المغضوب عليهم.

ان هذا النوع من الحكم يجعل الناس أقل وعيا ،وأقل اتحادا ،وأقل شعورا بالمسئولية ،لان الانسان الجزائرى قد سلبت منه الارادة والشجاعة ،والثقة بالنفس، فأصبح بهذه الخلال، كأنه إنسان غير كامل ،ومن ثم فهو غير كفء وإذن فالنوائب أعظم منه ،فليبتعد عنها ،وليتركها للاسياد الذين خلفوا خلفا آخر لمواجهة هذه النوائب وعظائم الامور.

والسبب الثاني يرجع الى المساحة الشاسعة التي تشتمل عليها الجزائر منذ أن تحددت حدودها في سنة ١٥١٦ وأصبحت ذات سيادة مطلقة(١).

ساعدت مساحة الجزائر الشاسعة على انتشار السكان في كل ناحية ،كالواحات والجبال ،والمدن والقرى النائية.

كان السكان موزعين على هذه المناطق المتباعدة حسب نشأتهم وتكونهم الاجتماعي .فهؤلاء أعراب رحل ،وأولئك فلاحون قارون أو تجار متنقلون ،وجميعهم مفككون.

والسبب الثالث: يرجع الى النزعة الاقليمية التي كانت تسود أغلب المناطق. الجزائرية ،حيث تطغى على مشاعرهم جميعا بدون استثناء ،وهم من هذه الناحية يشبهون العرب الاولين في النزعة القبلية.

والسبب الرابع والاخير: يرجع الى الحروب الاسبانية التي كانت تشنها على النواحي الساحلية من القطر الجزائرى.

فمنذ ان انتصر الاسبان على عرب الاندلس وهم يحاولون في عزم وتصميم مواصلة زحفهم على مواطن الجنس العربي .وما أن وصل الاسبان الى السواحل الجزائرية حتى خلت المدن الساحلية من السكان .ونتج عن ذلك قلة مرافق الحياة

وعلى الرغم من هذه الصعوبات فان الامير استطاع أن يقاوم الفرنسيين منذ أن تقلد زمام الحكم سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٧ . كان الامير في هذه المدة يرهب الاعداء ويقض مضاجعهم ،مع علمه التام أن العدو كان أكثر منه قوة ونظاما.

أوحى تفوق العدو الى الامير أن يغير طريقة الحرب مع العدو ،فاهتدى الى أن ينظم جيوشه تنظيما يساير طبيعة المعارك ،بحيث لا يواجه عدوه مواجهة الند للند ،بل يعتمد على السرعة في الهجوم ،والسرعة في الانتقال .وهذا الضرب من القتال يشبه ما كان معروفا عند الاقدمين بالكر والفر.

---

(١) راجع كتاب (حرب ثلاثمائة سنة ، ص ٧ و ص ٦٠ ،توفيق المدني

أوحى هذا النوع من القتال الى الامير بأن ينشئ مدينة متنقلة أساسها الخيام ،والخيول ،وما الى ذلك من مستلزمات الجيش. كانت هذه الطريقة أعجوبة زمانه فحار في أمرها قادة الجيوش الفرنسية .فالامير يرى هنا ،ويراد ساعته ،فاذا هو هناك ،يباغت الاعداء من حيث لم يحتسبوا .وكم من معركة اكتسبها بفضل هذه الخطة الحربية ،ولذلك استطاع أن يقاوم مدة طويلة دون أن يقضي عليه كل القضاء وكم معاهدة أبرمها الامير مع قادة الجيوش الفرنسية ،لانه كان في مستوى الاحداث.

ومعنى ما تقدم أن الامير يجمع بين خصلتين هامتين .احداهما عسكرية وتتمثل في تنظيم الجيوش والزحف بها أو تحويلها الى وجهة أخرى ريثما يجد الفرصة سانحة لينقض على عدوه.

والخصلة الثانية تتمثل في الناحية السياسية بحكم هذه المعاهدات التي كان يعقدها بين حين وحين .والمؤرخون يثبتون أن الفرنسيين كانوا يميلون الى هذه المعاهدات لربح الوقت ،ولترميم جيوشهم .ومتى سنحت الفرصة كروا من جديد ونافضوا ما كانوا قد ابرموه .وهكذا الى أن ضيقوا الخناق على الامير فاذعن للامر الواقع.

وبعد هذا الاذعان قال بعض المؤرخين – ومنهم الفرنسيون – إن سبب الاذعان يرجع الى عاملين:

أحدهما: أن الامير لم يستطع توحيد الشعب الجزائرى من أقصاه الى أقصاه

وثانيهما: ان الامير لم يجد مؤازرة من الخارج سواء من البلدان القاصية أو البلدان المجاورة.

هذا وأن للامير محمدة سجلها له التاريخ خارج الجزائر في سنة ١٨٦٠ تتمثل فيما عرف تاريخيا بنكبات الشام . في هذه السنة اندلعت ثورة بين الاهالي وكانوا تحت النظام التركي .ويقال: إن سببها يرجع الى نزعات دينية ،وأن الاصابع الخفية التي غذت نار الفتنة ترجع الى المسئولين المحليين في الدرجة الاولى، وأن الاستانة بريئة من كل تهمة.

في هذه الاونة كان نجم الأمير متلألأ بسبب مواقفه البطولية التي عرف بها في بلده الجزائر .فلما استقر بالشام أصبح ذا منزلة مرموقة ،سواء لدى الدولة العثمانية ،أو الاهالي .وبحكم هذه المنزلة اشتهر وحل في قلوب الناس جميعا، ويرى كأنه أعلى من أن يتأثر بما يتأثر به الانسان العادى من هذه النزعات التي تتنافى والاديان السماوية ،وتتنافى والمثل العليا.

أنقذ الامير اثنتي عشر نفسا من الموت المحقق ،اذ جعل بيته مأوى للمسيحيين المنكوبين آنذاك .وأخذ يدافع عنهم في صدق واخلاص .وقد وصفه مؤلف من شاهدي العيان بصفات قل أن تجتمع في رجل ،قال : ((على أن الارض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المر .ولا يخلو زمان مهما كثر توحش أهله من بقية تبقى من أهل الفضل والمروءة .قد وجد في وسط أولئك الوحوش الظالمين رجل عظيم المقام ،رفيع القدر ،عالي الهمة ،كثير التمسك بفضائل الاسلام ،شريف في الحسب والنسب .أمير ساد بالسيف ،وساد بالادب .بطل مغوار ،وليث كرار .شهد الحروب والاهوال ،وفعل فيها فعال الابطال .وكان أخصامه في أيام عزه أناس من المسيحيين ،فحاربهم كما يحارب الرجل الرجال .ولما خانه الدهر وضاعت مملكته من يده آثر الانزواء في دمشق ،ليقضي بقية عمره الشريف فيما يرضى الله .وكان يكره قتل الضعفاء بالدسيسة والغدر ،وينهي عما يحرمه دين المسلمين .فظهر بين تلك الجموع المنحطة مثل لؤلؤة في وسط حجارة صماء سوداء .وعلت نفسه علوا كبيرا عن دسائس الاتراك ومكايد المفسدين ،وفعال المتوحشين .هو السيد السند والفرد الامجد ،والبطل الاوحد :الامير الخطير ،والملك الخطير عبد القادر الحسني الجزائري ،صاحب بلاد الجزائر ،طيب الله ذكره ،ورحمه الف رحمة ،وأكثر الله من أمثاله بين الادميين)) (١) .

ثم ينتقل المؤلف الى ذكر محاسن الامير ومساعيه الحميدة مع السلطة التركية وتخوفاته من كيد الكائدين ،وما قام به من ايجابيات .

((ولما شعر بذلك الامير بعث رجاله في الليل في كل ناحية من أنحاء دمشق فجعلوا يدورون في جوانبها ويفتشون على النصارى فيقودونهم الى سراى الامير ، اينما وجدوهم ويردون عنهم جموع الهائجين .ومضى الليل كله والنهار التالي والامير عبد القادر يجمع هؤلاء المساكين في بيته وهو يطعمهم ويسقيهم من ماله ويواسيهم ويلطف احزانهم ،ويعدهم بتخفيف الكرب ،ويهدئ روعهم .وما سمع الناس باشرف من هذا السيد العظيم)) (٢)

ويستمر المؤلف مرة أخرى في ذكر محاسن الامير ومساعيه الحميدة وتخوفاته من بعض الاشرار الذين حادوا عن التعاليم الاسلامية .ويدرك الامير أن فناصل الدول لا تستطيع أن تقوم باى عمل ايجابي ازاء السلطات التركية ،بسبب اختلاف العقيدة .

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام ،ص ٢٣٠ المؤلف مجهول ،ط ١٨٩٥ ،الطبعة الاولى : مصر

(٢) المصدر السابق

أما الامير فقد أثر في المهاجمين بحكم ماضيه في الجهاد ،فانسحبوا وهم له من الطائعين .

هذا وان صاحب الساق عن الساق (١) قد مدح الامير بقصيدة غراء تقع في سبعة وخمسين بيتا .استفتحها بقوله :

ما دام شخصك غائبا عن ناظرى ... ليس السرور بخاطر في خاطرى

يستمر المؤلف في ذكر أشواقه ومحبته لفقيد العروبة والاسلام الى أن يقول :

سكن الامير وطار في الدنيا اسمه ... وروى المعالي عنه كل معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل ... والعرب بين مفاخر ومنافر (٢)

والقصيدة من أولها الى آخرها تقطر بما يتأجج في نفس المؤلف من الصدق والاخلاص ،مما يدل على أن الامير كان يتمتع بسمعة طيبة في المشرق العربي .وهذا يرجع الى جهاده الطويل الذى جاهده لينقذ بلاده من الغزاة الدخلاء .ولما يئس من النصر اعتصم بالمثل العليا التي هي شيمة المجاهدين الصادقين الى أن وافته المنية ،والناس عنه راضون .

ارتباط تاريخ الامير بأبنائه وأحفاده :

ارتبط تاريخ الامير عبد القادر بكفاح أبنائه وأحفاده من أجل وطنهم الجزائر مثل محي الدين ،وعلي ،وعمر ،وعبد المالك ،وخالد .

ان هؤلاء الامراء كانوا يتأججون وطنية وغيرة على الجزائر ،ويتشوقون الى يوم تصير فيه الجزائر دولة مستقلة .

تقول بعض الوثائق :أن محي الدين كان يعيش مع أبيه الامير عبد القادر في المنفى بدمشق ،ثم أصيب بمرض أو تمارض حتى يجد الفرصة سانحة للابتعاد عن أبيه . ((وكانت الحرب قد قامت بين فرنسا وبروسيا ، وظن أنها تطول بينهما ، فخطر بباله ان ينتهز الفرصة لتخليص وطنه الجزائر من يد فرنسا ،ويزيل عنه الكدر والغبن ،فتوجه بقصد الزيارة الى الديار المقدسة ،فحينما وصل الى الاسكندرية توجه منها الى تونس ،ولم يعلم أحد بنيته الخفية ،وذلك في آخر شهر اكتوبر ١٨٧٠ واستقبلته الدوائر الرسمية التونسية بحفاوة ،ومنحه الباى محمد الصادق (نيشان الافتخار) التونسي يوم ١٨ نوفمبر واعتكف على دراسة المخطوطات العربية ، والتعرف على الخطوط العربية ،وتجنب الاتصال بالناس حتى لا يعرفوا وجهته ،

(١) احمد فارس الشدياق ،اعتنق الاسلام . (٢) ج ٢ ص ٢٩٥ مطبعة الفنون – مصر ، بدون تاريخ

وكان يريد الذهاب الى الجزائر، غير أن الشهرة التي نالها من السلطة التونسية حالت دون ذلك خوفا من أن ينكشف أمره... فبعد اقامة قصيرة بتونس غادرها محي الدين بحرا الى الشام في الظاهر يوم ٢١ نوفمبر، بعد أن لاحظ أن الدوائر التونسية مشغولة عنه بمشاكلها الداخلية. وعندما وصل الى مالطة حول اتجاهه الى طرابلس الغرب، ومن هناك الى توزر، ونفطة، ونقزاوة، مختفيا في زي عربي مع عدد من الرفاق، حتى لا تفطن اليه أعين المخابرات التونسية التي أخذت تتبع أخباره وتتعقبه بعد أن غيرت السلطات الرسمية نظرتها نحوه، وأعطت تعليمات للشرطة والولاة في الاقاليم لاعتقاله حيثما وجد. وقد يكون الاعوان الفرنسيون بتونس هم الذين أثاروا شكوكها، ودفعوها الى تغيير موقفها منه بعد التكريم الذي أحاطته به في المدة الاولى) (١).

ينجو محي الدين من السلطات التونسية ويصل الى الحدود الجزائرية الشرقية، ويتصل بزعماء الثوار، وهم فريقان. فريق كان قد فر من الفرنسيين سابقا وفريق قد تكون جديدا تحت الظروف الراهنة آنذاك، وأهمها الحرب الالمانية الفرنسية.

اجتمع الامير محي الدين بزعماء الفريقين ورضوا به رئيسا عليهم جميعا.
في أوائل سنة ١٨٧١ تقدم الامير بالثائرين الجزائريين الى قرية نقرين، وما كاد يصلها حتى انتشر خبر وجوده وخطته الحربية ضد الفرنسيين لاسترجاع استقلال الجزائر، فراسله زعماء الصحراء ويقترحون عليه أن يتجه اليهم حيث هم في الجنوب، ولكن الامير فضل أن يتجه الى الشريعة وتبسة.

وفي يوم ٩ مارس دخل الى نقرين ووفد عليه هناك وفد من أولاد خليفة النائرين بالشريعة، فاتجه معهم الى سكرانة، ثم الى الشريعة، وجبل الدكان. وشعر المعمرون الاوربيون بالخطر فتحصنوا بمدينة تبسة، وأغلقوا أبوابها. والتجأ معمرو جلوند الاوربيون الى مسكيانة (٢)

المعركة:

كثر حماس الثوار بقيادة الامير محي الدين، وكثر المتطوعون وسمع بهم القاصي والداني، وكان لزاما أن تحدث معركة فاصلة تكون في صالح العدو، وذلك لسببين:

أحدهما: أن المجاهدين تنقصهم الخبرة العسكرية والنظام.
ثانيهما: أن الجيوش الفرنسية قد ألفت بثقلها لتخوض غمار هذه المعركة المصيرية.

---

(١) الاصالة السنة الخامسة، عدد ٣٨، ص٢٥
(٢) المصدر السابق

((وفي يوم ٢٦ مارس اصطدم محي الدين بقوات الجنرال بوجي في واد الحميمة، وحصلت بين الطرفين معركة كبيرة تفوق فيها الفرنسيون)) (١)

بعد انتصار الاعداء على الامير وقواته رأى أن ينسحب الى الحدود التونسية، ثم رجع الى الشام، ونفسه تتحسر على ما آل اليه أمر الجزائر.

انهزم الامير محي الدين في المعركة، وتحسر كل التحسر للنتيجة السيئة، ولم يدر بخلده، أن معارك أخرى سيقوم بها أفراد من أسرته كالامير عبد المالك والامير خالد، ثم أبناء الشعب الجزائرى الى أن تتحرر الجزائر كل التحرر.

الامير عبد المالك

بدأ هذا الامير مقاومته للفرنسيين منذ سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢٤، وهي السنة التي استشهد فيها في معركة حامية الوطيس ضد الفرنسيين بالمغرب الاقصى

عاش الامير في المشرق العربي فترة شائكة ومعقدة، تتجلى في المصالح المتضاربة بين عدد من القوات، المتباينة من جهة والمتداخلة من جهة أخرى، والمشتركة من جهة ثالثة. فهناك: المسألة الشرقية. وهناك المسألة المصرية. وهناك المسأله المغربية. وهناك القومية العربية. وهناك القومية الاسلامية...

كل هذه القوات كانت تؤثر في النفوس، وتوحي بمبادئ جديدة اعتنقها الشباب والكهول، وتصارعت بسبب ذلك القيم والعقليات. وتمايزت الاتجاهات، والنزعات، وتحدد التفكير والهدف. ومن بين هؤلاء الذين عاشوا في خضم هذه الصراعات والنزعات الامير عبد المالك، وتغلبت عليه النزعة الوطنية مثل بقية أفراد أسرته، فرأى الأمير أن يلتحق بالجيش العثماني آملا أن تنتصر الوحدة الاسلامية تحت لواء الدولة التركية، التي لا تزال تدعو المسلمين الى توحيد كلمتهم تحت لواء اسلامي.

استطاع الامير مالك أن يرقى الى درجة عقيد في أواخر القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي بلغت فيها المسألة الشرقية أوج تشعبها.

وفي هذه الاثناء كانت فرنسا تتوجس خيفة من الجزائريين الذين هم في الخارج، وخاصة من لهم مناصب عليا في الجيش العثماني أو الادارة.

---

(١) المصدر السابق

وبناء على هذه المخاوف الفرنسية ،رأت فرنسا أن تفتح بابا في جميع المناصب ومنها ما يتعلق بالامن والدفاع ،لهؤلاء الجزائريين عسى أن يتركوا الدولة العثمانية وينضموا اليها لتخفف من وطأتهم ومن مشاعرهم الوطنية كي ((تمنعهم من الدخول فى حركة القومية الاسلامية)) (١) وخاصة وقد رأت الثورات الجزائرية المتتالية منذ احتلالها للقطر الجزائرى الى هذه السنوات التي ظهرت فيها القوميات العربية ،والاسلامية.

ونتيجة لما تقدم اغتنم الامير مالك الفرصة والتحق بفرنسا وفور وصوله عينته قائدا لقوات الشرطة في طنجة ،وذلك سنة ١٩٠٦ .وقبل الامير هذا المنصب المتواضع على مضض ،وفي نفسه أمر ،سوف يسفر عنه المستقبل القريب.

وفي الفترة الواقعة بين ١٩٠٦ و ١٩١٤ كانت الحرب الباردة قائمة على قدم وساق بين المانيا ،وفرنسا حول عدد من القضايا التي تتعلق بالمستعمرات سواء في المشرق العربي أو المغرب ،وخاصة اقليم طنجة حيث يوجد الامير مالك.

وبما أن فرنسا عدوة الجزائر فقد رأى الامير أن يكون في صف أعداء الفرنسيين ،وفي مقدمتهم المانيا العدو اللدود لفرنسا .وما ان اندلعت الحرب العالمية الاولى بين فرنسا وحلفائها ،والمانيا وحلفائها حتى كان الامير يخابر المانيا هاتفيا عن الخطط السرية الفرنسية.

وبعد هذا الحادث سارع الامير الى نقل عائلته الى اسبانيا ،ثم أعلن الحرب ضد فرنسا سنة ١٩١٥ ،واستاءت فرنسا من الامير فاوعزت الى اسبانيا تطلب منها ارجاع الامير مالك الى فرنسا ،ولكنها لم توفق ،وبقي الامير يحارب الفرنسيين بضراوة آملا أن تنتصر المانيا وحليفتها تركيا الدولة الاسلامية ،وبذلك تضعف شوكة فرنسا عدو الشعوب العربية والاسلامية.

((بدأ الامير مالك ثورته أولا في اقليم تازة ،شمال شرقي فاس المدينة التاريخية ،والقريبة من الحدود المغربية الجزائرية .وبناء على قول أحد الكتاب فان هدف الامير مالك كان اعلان نفسه سلطانا على المغرب ،وجعل فاس عاصمة له. وقد نجح الامير في كسب المواطنين المغاربة الى قضيته ،ومن بين هؤلاء زعيم ثورة الريف بعد الحرب :الامير عبد الكريم الخطابي الشهير الذى كان عندئذ ما يزال موظفا في الادارة الاسبانية في مليلية .وقد عمل الامير الخطابي كقائم بالاتصالات للامير عبد المالك مع القوات المركزية من خلال اسبانيا للحصول على الاسلحة والعتاد)) (٢)

(١) الحركة الوطنية الجزائرية ،ص٢٥٩ ،الدكتور سعد الله ،دار الاداب – بيروت سنة ١٩٦٩ الطبعة الاولى

(٢) المصدر السابق ،ص ٢٦١

وينشط الامير مالك في قضيته ويجد نفسه مؤيدا من الداخل ومن الخارج، ويكتب الى أخيه الامير علي يبين له خطته العسكرية للاستيلاء على الدار البيضاء ثم سرعان ما تنقل مختلف الصحف العالمية خبر انتصاراته على الفرنسيين الذين خسروا في المعارك عددا كبيرا من جنودهم يربو عن سبعمائة قتيل.

وفي سنة ١٩١٨ خسرت المانيا وتركيا الحرب ،وتوقفت الاسلحة التي كانت تصل باستمرار الى الامير فاتجه الى اسبانيا عسى أن يجد مساعدة مادية جديدة تمكنه أن يخوض الحرب مرة أخرى ضد فرنسا.

((وفي ماى ١٩٢٣ كان الامير مالك في تطوان يجند الجنود ،ولكن فرنسا سرعان ما احتجت على اسبانيا على أساس انه كان هاربا ،وأنه قد أعلن الجهاد ضد فرنسا .وعندما لم تجد اسبانيا بدا طلبت من الامير التخلي عن مكان القيادة. وفي السنة التالية نجح في تجنيد عدد كبير من الجنود من الريف ثم قادهم في حملة صادف أن كانت آخر حملاته ضد فرنسا)) (١) .اذ استشهد في أوت سنة ١٩٢٤.

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٥

الباب الخامس

الحركة الاصلاحية

الفصل الاول : خير الدين التونسي .

من أصل شركسي ،اختطف صغيرا ،وبيع في الاستانة ،ثم بيع مرة أخرى الى وكيل أحمد باى تونس .فنشأ في القصر ،وأخذ يتعلم مبادئ اللغة وأصول الشريعة ، وعلم الكلام ،ثم تولى قيادة الجيش التونسي .

ويمتاز خير الدين بعدة خصال حميدة ،قل أن تجتمع في واحد .فقد كان متدينا ،مخلصا لمولاه ولوطنه ،نزيها وواعيا .ان هذه الخصال جعلته موضع ثقة مولاه :أحمد باى ،فأسند اليه عددا من المناصب الكبرى .وفي مقدمتها :قيادة الجيش التونسي ،والدفاع عن تونس سياسيا خارج تونس أيام محنتها الاولى .

كانت هذه المهمة شاقة ،ومع ذلك فقد تحمل خير الدين عبئها الثقيل في أوقات حرجة ،وقام بها أحسن قيام . (١)

والى جانب المهام التي عينت له وقام بها فقد رأى أن ينهض بتونس نهضة تلائم ما ينتظر منه ،ويقتفي آثار كبار الدول الاوربية ليبعث تونس بعثا جديدا ينقذها مما تتخبط فيه ،ومما عسى أن تقع فيه ،فكان أن بادر الى التخطيط في وضع المشاريع الضخمة ،وأسرع في تطبيقها حتى تخرج الى الوجود ويراها المسئولون والاهالي فيزداد حماسهم ويشجعونه على مواصلة المسيرة .فأنشأ مصنعا لبناء السفن ،ثم خطا خطوة أخرى نحو الديمقراطية الحقة ،فكون مجلسا سياسيا ،يحوى عددا من الاعضاء البارزين ،وهو على رأسهم ،وقد عزم كل العزم على أن يصلح ما أفسدته الايدى الاثمة .فكان يستشير أعضاء المجلس ويرجع الى القوانين ليجعلها الكلمة الفاصلة فيما أشكل عليهم .

انطلق خير الدين في صدق واخلاص ،ولكنه ما كاد يخطو خطوة الى الامام حتى وضعت أمامه عراقيل ،وكلما حاول أن يتغلب عليها جددها المعرقلون مرة أخرى . .وأخيرا أدرك أن الطريق جد شائك ،وأن التغلب على العراقيل يتطلب مزيدا من الصبر والمعاناة .فقرر بينه وبين نفسه أن يبذل كل ما في وسعه حتى يقضي على المعرقلين ويزيل من أمام تونس كل العقبات .

---

(١) هذا الباب بفصليه :خير الدين ومحمد عبده مصدره :زعماء الاصلاح ،لاحمد أمين من ص ١٤٦ الى ص ١٨٣ ومن ص ٢٦ الى ص ٥٨ .مكتبة النهضة ،مصر ، سنة ١٩٤٨

كانت في تونس ثلاث قوات تتصارع ظاهرا وباطنا :قوة تسعى الى الاصلاح ، وبث الوعي القومي في الاهالي ،وزعيمها :خير الدين .وقوتان تفضلان المصلحة الخاصة على المصلحة العامة .قوة خزنادار وزير المالية .وقوة الباى ،ثم تبعهما رجال الدين ،وذوو المنفعة ممن لهم سلطة ادارية أو سياسية .

وأخيرا تغلبت القوتان النفعيتان على قوة الاصلاح ،فاضطر خير الدين ان يقدم استقالته قائلا : (لقد حاولت أن أسير بالامور في طريق العدالة ،والنزاهة ، والاخلاص ،فذهب كل مسعاى سدى ولم أشأ أن أخدع وطني الذى تبناني بتمسكي بالمناصب ،ورأيت أن الباى ،وعلى الاخص وزيره الرهيب العظيم الجاه : مصطفى خزنادار لا يلجآن الى التشريعات الاصلاحية الا لتبرير سيئاتهما تبريرا قانونيا ، فقدمت استقالتي سنة ١٨٧٩ من رياسة المجلس ،ومن وزارة الحربية ،وعدت الى حياتي الخاصة) (١) .

وبعد الاستقالة لم تنقطع صلة خير الدين بالباى أو بخزنادار ،لان الاول مولاه والثاني : صهره .

بقي خير الدين معتزلا الحكم مدة تسع سنوات .هذا من الناحية الرسمية ، ولكن من الناحية الواقعية فقد كان دائم العمل لصالح تونس .اتصل بأوربا عن كثب وعرف أسباب نهضتها وتفوقها ،وبأمر من الباى سافر الى عدد من الدول الاوربية في قضايا وطنية ،ونجح فيها الى حد كبير .

وفي هذه الاونة ظهر خزنادار على المسرح السياسي التونسي ،وخلا له الجو ، وكان رجلا جشعا وذا نفوذ قوى ،وكان الباى يجاريه في سياسته ،لانه وجد فيه الرجل الذى يضحي بمصالح الشعب في سبيل القصر أولا ثم في مصلحته الشخصية بعد ذلك

استطاع خزنادار أن يهيمن على شئون البلاد ،وأن يلغي المجلس النيابي ، وأن يفرض ضرائب جديدة حتى أثقل كاهل الشعب ،واستنزف خيراته .ولما ضاقت به البلاد ،ولم يجد موردا لقصر الباى ،وقصوره لجأ (الى اوربا يستدين منها .وفي أقل من سبع سنوات بلغ الدين ١٥٠ مليون فرنك) (٢)

شعر الباى بأن بلاده سوف تصاب بكارثة على يد خزنادار ،وخاصة أن الدول الاوربية أخذت تتوجس خيفة على ديونها ،وأصبحت تلح على الباى أن يتفهم

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٧

(٢) المصدر السابق ،ص ١٦٥

الوضع ،وأن يشكل لجانا خاصة بالديون للنظر في تحديدها وطريقة حلها حلا مرضيا وفي هذه الازمة الشائكة اضطر الباى أن يقبل ما اقترحته الدول الاوربية المعنية من تكوين لجنة لدراسة مسألة الديون التي على خزينة الدولة التونسية .

وبالحاح من الباى قبل خير الدين أن يكون رئيسا للجنة المكونة من فرنسيين وايطاليين وانجليز .

استطاع خير الدين أن يحدد الدين لكل دولة ،وأن ينقذ تونس من مطامع تلك الدول التي كانت تريد بها سوءا .كما استطاع من جهة أخرى أن يحصر أسباب الافلاس في صهره خزنادار ،ثم يحاكمه ويدان أمام المحكمة بدفع خمسة وعشرين مليون فرنك . (١)

خير الدين الوزير المفوض

وبعد خزنادار يصبح خير الدين الوزير الاول والمفوض للدولة التونسية ،ويفرح به الاهالي ،لما يعرفونه منه من نزاهة وصدق في العمل .في هذه الفترة نشط خير الدين مرة أخرى وصمم على بعث تونس من جديد ،فينقذها مما تتخبط فيه من المرض ،والفقر والجهل ،فخفف الضرائب ،وشجع غرس الزيتون ،وأنشأ عددا من المدارس ،ثم اتجه الى سفراء الدول يدرس نواياهم ،ونوايا دولهم ازاء تونس، فوجد فرنسا تريد أن تنقض على تونس ،وكذا ايطاليا .فرأى (أن يضرب الدولتين ببعضهما ،وأن يقوى الصلة بين تونس والدولة العثمانية . .وخاطب الباب العالي في هذا الشأن وشرح له وجهة نظره ،فأجيب الى طلبه) (٢) .

كان ينبغي على الباى أن يرحب بهذا المسعى الجميل الذى قام به وزيره خير الدين ليجعل حدا لاطماع الدول في تونس ،ولكن الباى تخوف من أن يصبح تابعا للدولة التركية بطريقة فعليه فيفقد سلطته .وهذا النوع من سلب السلطة لرجل الف التصرف في أموال الدولة يفعل بها ما يشاء ،يشاقي وحشمه ،لذلك استاء من هذا الدمج أو الكنفدرالية التونسية التركية ،كما استاء بذلك رؤساء الدول الاوربية

في هذه الظروف الصعبة لم يجد خير الدين الا الشعب التونسي فاخلص له، يعمل من أجله ،ويضحي في سبيله ،ولكن قوة الشر تغلبت عليه أخيرا ،فاضطر من

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

منصبه ،ودعي الى الاستانة ليتولى رئاسة الوزارة على عهد السلطان عبد الحميد ، فقبلها ،ولكن مشاكل تركيا كانت كثيرة .فهذه روسيا تهاجمها وتنتصر عليها .وهذه انجلترا تحاصر تركيا بحرا وتصر على عدم الانسحاب من المياه التركية حتى تنسحب روسيا من الاراضي التركية .

وهناك ثورات أخرى تقوم هنا وهناك في مختلف الولايات العثمانية . في هذا الخضم المضطرب قضي خير الدين مدة ثمانية شهور وهو يحاول أن ينقذ ما يمكن انقاذه ،ولكن الشيخوخة كانت قد أدركت الدولة العثمانية ،فلم يستطع أن يحقق الا بعض الانتصارات السياسية مع روسيا ،ومع انجلترا .

استطاع خير الدين أن يوءثر في روسيا ويحدثها في نقطتين هامتين : احداهما الانسحاب العاجل من الاراضي التركية .وثانيتهما أن تضمن حقوق المسلمين في بلغاريا .فاستجاب الروس لمقترحات خير الدين ونفذها .وبذلك انسحب الانجليز بدورهم من المياه الاقليمية التركية .

وبعد هذه المدة القصيرة عزل خير الدين من منصبه ،وبقي في الاستانة الى أن وافته منيته سنة ١٨٨٩ وقد تجاوز السبعين سنة .

خير الدين المؤلف

الف خير الدين كتابا بعنوان (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك).. الف هذا الكتاب بعد أن زار أوربا ورأى بعينه ما أدهشه ،وجعل يقارن بين المسلمين وبين الاوربيين ،فوجد التقدم عند القوم والتأخر في قومه هو . فاستاء ورأى ان الاستياء السلبي لا يقدم أمرا ولا يوءخره ،فصمم على أن ينير السبيل بطريقة عملية .فكان كتابه هذا عنوانا صادقا على مشاعره النبيلة ازاء بني جلدته من المسلمين الذين هم في واد وخصومهم الاوربيين في واد آخر .

عكف على تأليفه مدة ثم نشره .ويتضمن عدة نقاط ،أهمها :

١ – الاسباب التي جعلت الدول الاسلامية تتأخر .
٢ – عوامل التقدم بالنسبة للامم الاوربية .
٣ – مقارنة بين هوءلاء واولئك مع ذكر العلل والنتائج والبراهين .

كان منهج خير الدين في كتابه هذا يشبه منهج ابن خلدون الذي يقوم على وصف الداء اولا ثم معالجته بطرق علمية بعد ذلك . واهم ما يلفت النظر ،انه استمسك بآرائه التي كان ينادي بها ويحاول ان يطبقها في كل من تونس والاستانة ، وفي نفس الوقت كان ينقد آراء خصومه ،وفي مقدمتهم الذين يلبسون الحق بالباطل

عن جهالة ،ويزعمون أن الاقتباس من الغرب يتنافى والشريعة الاسلامية ،أو أنه لا يوافق طبيعة المسلمين ..

قال خير الدين : (ليس بالناس يعرف الحق ،ولكن بالحق يعرف الناس . والحكمة ضالة الموءمن يأخذها حيث يجدها) (١) .

كي يبرهن على صحة نظريته هذه .ضرب مثلا بسلمان الفارسي الذى اقترح على النبي – صلى الله عليه وسلم – حفر خندق في غزوة الاحزاب ،وعمل برأيه . كما ضرب أمثلة أخرى كثيرة ومتنوعة منها : أن المسلمين الاولين أخذوا علوم اليونان كالمنطق .واستفادوا منها . حتى ان الغزالي قال : من لا معرفة له بالمنطق لم يوثق بعلمه . ((وأبو بكر الصديق قال لخالد عند ارساله لقتال أهل الردة في اليمامة : اذا لاقيت القوم ،فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به .السهم للسهم . والرمح للرمح .والسيف للسيف)) (ولو ادرك هذا الزمان لقال : المدفع للمدفع . والبارجة للبارجة .والمدرعة للمدرعة .ولا يمكن الاستعداد لمنازلتهم بمثل سلاحهم الا بالعلم وأسباب العمران) (٢) .

ويستمر خير الدين في تفنيد مزاعم المعارضين قائلا : (نقول لهوءلاء الذين لا يستحسنون ما تأتي به المدنية الغربية : لماذا تنكرونها فقط في التنظيم والادارة وضبطها ،والعدل واقامته .؟ ولا تنكرونها فيما تتنافسون فيه من الملابس والاثاث والمخترعات وأسباب الترف) (٣) .

ومما قاله خير الدين هذه العبارة التي نقلها عن أحد المسئولين في السياسة الحربية : (ان الامة التي لا تجارى جاراتها في معداتها الحربية ،ونظمها العسكرية ، توشك أن تقع غنيمة في أيديهم)(٤) .

---

(١) المصدر السابق
(٢) المصدر السابق
(٣) ،(٤) المصدر السابق .ونشير الى أن غاندى شعر بما شعر به خير الدين ودعا الهنود الى احراق جميع ما يملكونه من أثاث الانجليز ،وتم ذلك عن طيب نفس .وهو سلاح سلمي ،ولكنه موءثر .

ثم يقول: (ومن دواعي الاسف ان هذه النظرة الى المدنية الغربية ،لا تزال تؤثر في بعض البيئات في الامم الاسلامية ،وان اختلفت درجاتها في الاصغاء الى هذه الدعوة ،كالتخويف من تعليم المرأة ،ومن الاستمداد من التشريع الحديث . ولعل هذا من الاسباب التي جعلت النصارى والمسلمين اذا اجتمعوا في قطر واحد كان النصارى أسبق الى تشرب المدنية الغربية ،والاستفادة منها ،ثم يأتي بعض الناس فينسبون ذلك الى طبيعة الاسلام .والاسلام لا يمنع أن يقتبس الصالح من الامر ،حيث كان ،وممن كان) (١).

الفصل الثاني : مدحت باشا

عاصر مدحت باشا عددا من سلاطين آل‌عثمان محمود ،عبد المجيد ،عبد العزيز ،ثم عبد الحميد .

كانت الحالة في عصر هؤلاء السلاطين متدهورة اقتصاديا وسياسيا ،وثقافيا ، بل عسكريا ايضا .انعدم الامن ،فعم الاضطراب وأصبحت المناصب على اختلافها تعطى بالرشوة .والضرائب تؤخذ بالسياط .والشعب يعيش في جهالة جهلاء . والسلاطين يفكرون بعقول القرون الوسطى ،ويقدمون مصالحهم على مصالح الشعب ، وكان الحياة في الملذات المادية الزائلة .فبنوا القصور ،واقتنوا الاماء ،والخدم . وخصصوا لذلك أموالا طائلة فاثقلوا ميزانية الدولة ،حتى أصبحت عاجزة . فاستدانت الحكومة من الخارج ،فكان الدين سببا في التدخل الاجنبي .وزاد الطين بلة .ان سلاطين آل عثمان كانوا يفرقون بين الطوائف الدينية .فهم بحكم عقيدتهم الاسلامية يميلون الى المسلمين ،وينفرون من غيرهم ،ولكن التركي مفضل على الجميع .

أدى هذا النوع من المفاضلة الى انشقاق أمم الدولة العثمانية في كل مكان . فانشقت شعوب البلقان : البوسنة ،الهرسك ،سربيا ،البانيا ،اليونان ،بلغاريا ،رومانيا

كان في هذه البلدان ثورات ،وحروب ،والى جانبها كان الروس يتدخل بجيوشه الى بعض هذه البلدان ،فيقلق الساسة الاتراك ،ويحدث اضطرابا في خططهم .يضاف الى ذلك تحرشات انجلترا ،وتهديدات فرنسا ،وتربصات الشعوب العربية ،ورؤسائها .مثل مصر ،وسوريا ،والعراق .

(١) المصدر السابق .ونشير الى ان غاندي شعر بما شعر به خير الدين .ودعا الهنود الى احراق جميع ما يملكونه من أثاث الانجليز .وتم ذلك عن طيب نفس .وهو سلاح سلمي ،ولكنه مؤثر .

وأخيرا : الحركة الوهابية التي زعزعت تركيا ،وساعدت على تقلصها من جهة ودخول الدول الاستعمارية الى الاراضي العربية من جهة أخرى .

ظهر مدحت والدولة العثمانية على ما وصفنا ،فرأى أن يساهم بما أوتي من علم وخبرة عسى أن ينقذها مما هي فيه ،ويبعث بها الى الامام ،شأن الدول الاوربية التي كانت بالامس القريب تعاني ضعفا لا يقل عن الضعف الذي أصاب تركيا ،ومع ذلك ،فقد استطاعت تلك الدول الاوربية أن تنقذ نفسها من الضعف وأن تنطلق نحو البناء والتشييد ،لانها عالجت مشاكلها معالجة صحيحة ،ففحصت أمورها من جميع نواحيها فعرفت الداء ،وكان يتمثل في الفوضى والفرقة فنظمت نفسها ووحدت صفوفها ،فاذا هي واقفة على قدميها تطالب بالانفصال التام عن الدولة العثمانية ،وكان لها ذلك بفضل كفاحها من جهة ،ومساعدة الدول الكبرى لها من جهة أخرى .

كتب مدحت يقول : ((ان التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق .فنظارة المالية ترسل الاموال الى المابين فيصرفها السلطان في ملذاته .والنظارة يبيعون الوظائف بيع السلع ،فالوالي يشترى وظيفة من الصدر الاعظم ،ويذهب الى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم ،حتى خربت الولايات ،ووقعت الدولة في أزمة شديدة ولا سبيل الى الخلاص منها الا بتبديل الادارة الحالية .وتبديلها يكون بانشاء مجلس نيابي ،وجعل النظار مسئولين أمامه ،وأن يكون هذا المجلس قوميا ،فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر ،وأن يوضع الولاة في الولايات تحت المراقبة الشديدة)) (١) .

يلخص أحمد أمين هذه المعاني كلها في كلمة واحدة هي (الدستور) وهو يعني أن الدولة العثمانية في هذا العهد كانت في حاجة ماسة الى العدالة الاجتماعية .وهذه العدالة لايمكن أن تطبق تطبيقا فعليا ونزيها الا اذا كان هناك دستور ،لان الدستور هو الذى يجعل ما لقيصر لقيصر ،وما لله لله .

عين مدحت صدرا أعظم ،وتفاءل الناس ،وأقيمت المحافل .وسارع هو الى اصدار العفو عن المنفيين السياسيين الذين أبعدوا عن وطنهم بتهمة الانتماء الى حركة الاصلاح التي كان مدحت قد تزعمها مع عدد من الشبان المستنيرين .

(١) زعماء الاصلاح ، ص ٣٨

واجه مدحت مشاكل معقدة. بعضها يتعلق بالدول المجاورة، وبعضها يتعلق بشئون تركيا نفسها. حاول أن يتغلب عليها جميعا، على أن يبدأ المعالجة من الداخل، حيث الداء قد استسرى. بدأ أولا بتحديد ميزانية السلطان. وهذا ضرب من الجرأة لم يألفه سلاطين آل عثمان. فهم قد تعودوا ان تطاع لهم الاوامر، وان تلبى رغباتهم، ثم بعد ذلك تطأطأ لهم الروءوس في احترام واكبار.

هكذا تعود سلاطين آل عثمان. فهم لا يقدرون أن أحدا سوف يولد في تركيا في يوم ما ثم يأتي ليقول للسلطان: ان مصلحة الامة تستوجب شيئا من التضحية. ان هوءلاء السلاطين يفهمون معنى التضحية بمفهومين:

١ ـ أحدهما الخنوع. أعني أنهم يشعرون بأن بأسهم وعظمتهم وعزتهم.. كل ذلك ذهب، وأصبحوا كأنهم أناس كبقية أفراد الشعب التركي.

٢ ـ ثانيهما: التقشف. كأن الحياة في نظرهم أن يعيشوا هم كما يحبون، ويعيش الشعب فقيرا، وبذلك تتسع الشقة فتظهر عظمتهم من جهة، وتتحدد الشعبية للرعية من جهة أخرى.

ضيق مدحت على السلطان عبد العزيز وعلى حاشيته، فلم يفتح لهم خزائن الدولة، كما كان يفعل من قبله ممن تولوا رئاسة الوزارة، فأحدث هذا الضرب من الجرأة في نفس السلطان امتعاضا، ولكنه أسره في نفسه ولم يبده لاحد، في انتظار الظروف الملائمة.

تظاهر السلطان بالموافقة التامة، وظن الناس، وظن مدحت أن الوقت قد حان لبعث الامة التركيةمن جديد، فأخذ في وضع المشاريع الضخمة، التي تعود على الامة التركية بمنافع جمة. وأهم هذه المشاريع:

انشاء خط حديدى يربط بغداد وسوريا بتركيا، والاسلاك التلغرافية وتوحيد المكاييل والموازين، الى جانب المواقف السياسية والوطنية التي أظهرها في أوقات الشدة كاعتراضه على القرض الذى تقدم به اسماعيل خديوى مصر، الى السلطان، يطلب منه أن يأذن له في الاستدانة من دولة أجنبية.

قال مدحت (اذا أبيح له ذلك، تدخل الاجانب في شئون القطر المصرى، وضاع استقلاله الادارى والسياسي معا) (١)

(١) المصدر السابق، ص ٣٩

تعليق: استدان اسماعيل من الدول الاجنبية وخاصة انجلترا أموالا طائلة، وغرضه ان ينهض بمصر نهضة قوية ليساير الركب الحضارى الذى بدا يتجلى في الدول الاوربية، ولكن ما كاد يخطو بمصر خطوة حتى وجد نفسه مكبلا بأغلال الديون الانجليزية، ففقدت مصر بهذا الدين استقلالها كما تنبأ مدحت. ومثل هذا حدث لتونس، بسبب الديون الاجنبية.

لبث مدحت بعض الوقت يصارع الاحداث، ويحاول جاهدا أن يتغلب عليها بالصبر والمثابرة، ولكنه ما كاد يقضي في رئاسة الوزارة شهرين ونصفا حتى وجد نفسه مضايقا من السلطان، فاعتزل الحكم، وضاعت بذلك مشروعاته وخسرت الدولة أموالا طائلة دون أن تستفيد مثقال ذرة.

عين مدحت اثر ذلك وزيرا للعدل، وكان السلطان أراد أن يزحزحه الى منصب سلبي لا خطر منه، كما تعود على وزراء سابقين كانوا قد تقلدوا هذا المنصب واستغلوه لصالح السلطان. رأى مدحت أن البلاد قد أصيبت بنكسة بسبب تلك الاموال الطائلة التي أنفقت في مشاريع كانت حبرا على ورق، وان الاصلاح لا يزال بابه مفتوحا ان حسنت النية وصدق العزم. ويتمثل الاصلاح في الدرجة الاولى في الدستور. وهو ما كان يحلم به منذ أمد طويل.

صادف أن القى السلطان عبد العزيز خطاب العرش، وتحدث فيه عن الاصلاح فوجد مدحت الفرصة سانحة في أن يستغل كلمة الاصلاح فبعث برسالة الى السلطان يستنجزه ما وعد، وأشار فيها الى المنشآت الخيرية التي كان السلطان قد استولى عليها، والتمس منه أن يردها الى الاوقاف، لتصرف أموالها فيما خصصت له، الى غير ذلك من المسائل الهامة التي يراها مدحت سببا في تأخر الدولة.

عرض مدحت هذه الافكار على جميع الوزراء، فوافقوا عليها وكلف من يقوم بمهمة الاتصال بالسلطان. وبمقدمات، وتمهيدات عرض جوهر الموضوع على السلطان، ((فلما سمع كلمة الاصلاح والشورى هاج هائجه، وأصدر أمره في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة، وابعاده بتعيينه واليا لسلانيك.. ولم يمكث مدحت طويلا في سلانيك. فعزل بعد ثلاثة أشهر، وأخذ يصلح في مزرعته، ويفكر في أمته (١)

كانت هذه التتبعات الجائرة التي سلطها السلطان على جيب الشعب، سببا في أن يكتسب مدحت عطفا وتأييدا من جميع فئات الشعب، وفي مقدمتهم ذوى المناصب الكبرى، وقواد الجيوش، ثم الشباب المستنير، ولم يبق أمام مدحت الا المشائخ الكبار، فرأى أن يستميل عددا منهم ثم يقرر قراره النهائي ضد السلطان.

وفي اليوم الموعود اجتمعت قوات الجيش البرية والبحرية، وأحاط الجنود بالقصر، وبعثوا الى السلطان من يخبره بقرار العزل. ((فاستخف بهذا الخبر، فأشهدوه العساكر، والاساطيل، والجموع المحتشدة، فاستسلم، وانزلوه السراى، ووضعوه في قصر فخم ومعه والدته وثلاثمائة انثى، بين زوجات، وجوار مملوكات،

(١) المصدر السابق، ص ٤٠

ووصيفات ،وخادمات .واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٢١٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليات الطعام) و ٦٠٠ قواربي وأمثالهم من الخدم .وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التي حلت بالدولة .

وبعد بضعة أيام وجد السلطان مقتولا .فقيل :انه اعتدى عليه بالقتل .ويرى الاكثرون ،ويقرر جمع من الاطباء ،ويؤكد ذلك مدحت :ان السلطان أخذته العزة فقطع شريانا من ذراعه بمقراض فمات) (١) .

نجح مدحت في عزل السلطان .وبحكم الدستور عين مراد سلطانا خلفا للسلطان المخلوع ،ولكن هذا السلطان الجديد سرعان ما أصيب بالجنون ،وحل محله السلطان عبد الحميد .وافق عبد الحميد على الدستور ،وسارت الامور سيرا حسنا ،وكان مدحت يبذل كل ما في وسعه لانقاذ أمته ممن يتربصون بها الدوائر ، كالـروس . . .

ومع هذه المجهودات الجبارة التي كان يبذلها مدحت ،فقد عزل من منصبه بحجة أنه يسعى الى الغاء الخلافة ،واستبدالها بالجمهورية .

أدرك مدحت أن تهمة قد لفقت له ،وأن عليه أن يشيع في الناس حقيقة الامر حتى ينكشف المتآمرون . (وخاف السلطان من الرأى العام ،فطلعت الجرائد ، ومن ضمنها الجوائب ،ترمي مدحت بافضع التهم .هذه تقول :انه أراد أن يجعلها جمهورية .وهذه تقول : انه أوقع الدولة في مشاكل خطيرة .وادى الشعر رسالته . وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة .وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم .وقالوا :إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية) (٢) .

قال أحمد أمين : (والذى يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام ،وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب ،من مديح رنان ،الى هجاء رنان) (٣) .

عطل الدستور ،وأبعد مدحت ،ثم سمح له أن يتصل باهله ،ثم عين واليا على ازمير ،ثم أسندت اليه تهمة قتل السلطان عبد العزيز ،وزج به في السجن ،وعانى من سجانيه ما يفوق الوصف ،وأخيرا وجد ميتا .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٤

(٢) ، (٣) ، المصدر السابق من ص ٢٦ الى ص ٥٨

كان مدحت قد اكتشف وأصحابه قرب أجلهم على يد السجانين ،فكتب الى أهله يخبرهم بأن ((هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن فقد أخذوا منا الاقلام والمداد ،والورق ،وضيقوا علينا الخناق ،وقصدوا تسميمنا واحدا بعد واحد ،ولكن ظهرت نيتهم .ولا بد أن يصلوا يوما الى غرضهم .فاذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي فلا تحزنوا)) (١) .

مات مدحت ووورى جسمه في التراب ،ولكن أفكاره انتشرت وفعلت فعلها ،فاذا ثورة عارمة هزت أركان الدولة التركية من أساسها ،وقضت على عبد الحميد كما قضت على الخلافة العثمانية نفسها ،وبعثت تركيا من جديد لتعيش على المبادئ التي كان ينادى بها مدحت في حياته .

مـقـارنـة

وبالمقارنة بين المصلحين الكبيرين : خير الدين . ومدحت ، ندرك أن تفاوتا بينهما في النزوع .فخير الدين يدعو الى الاصلاح ولكن في أناة ،وتؤدة .بينما مدحت قد يدبر انقلابا ضد الطغاة اذا وجد الفرصة سانحة ،كما فعل بالسلطان عبد العزيز .

ولعل السبب يرجع الى أصل المصلحين .فمدحت تركي أصيل ،لم يشتر ،ولم يبع ولم يتبن .بينما خير الدين كان مولى ،واشترى ،وبيع ،ثم اشترى وبيع ،ثم ربي ونشئ ، وعلم .

ان هذه الظروف التي مر بها خير الدين تجعله يشعر بانه صنيع مولاه . والمروءة تحتم عليه أن يعترف بالجميل لمن كانت لهم عليه أياد بيضاء .ومن ثم فعليه أن ينصح لهم ما استطاع ،فان أفاد النصح فذاك ،أو فأرض الله واسعة .

وهكذا كانت وجهة نظر كل واحد منهما تخالف الاخر .فانعكس ذلك على سلوكهما الى آخر حياتهما .فحياة خير الدين كانت سلمية ،فانسحب من تونس الى تركيا ليموت فيها موتة طبيعية ،ولم يتهم باغتيال ،أو انقلاب .بينما مدحت التركي الجسور كان يحب وطنه ويعتز به ،ويسعى جاهدا في أن يحرره من يد الطغاة الذين ورثوا العروش إرثا أبا عن جد ،فأضاعوا ما بناه الاباء والاجداد ،بسبب العظمة المزيفة وكان الحياة عندهؤلاء السلاطين في الاكثار من الجوارى والخدم ،والقصور . . .

كان مدحت ضد هذه الابهة المصطنعة ،فحاول أن ينير الطريق لال عثمان باحدى الطريقتين :طريقة الحسنى ،أو طريقة الصرامة ،ان اقتضى الامر ذلك ،فبعث الرعب في قلوب أولئك الحكام ،فلم تغمض لهم عين حتى قضوا عليه .

---

(١) المصدر السابق من ص ٢٦ الى ص ٥٨ .

الـبـاب الـسـادس

الحركـة الاسلامـيـة

الـفـصـل الاول : جمـال الدين الافـغـانـي .

نزل جمال الدين الافغاني مصر ،والوطن العربي يمر من أقصاه الى أقصاه بأخطر مرحلة عرفها في تاريخه الطويل.هذا استعمار خارجي تكالب على الجنس العربي يتتبعه في كل مكان ،يحصى خطواته ،كأنه جنس من نوع الشياطين تحب مضايقته ومحاربته ،ثم السيطرة عليه واستعباده ،واستغلال أراضيه .وقد أدى بهم هذا الحقد الى أن يكونوا في صف اليهود الاعداء الالداء للجنس العربي .

وهذا استعمار روحي ،ساد في بعض المناطق العربية كاليمن ونحوها .قد خدر الشعوب بمخدرات الارث ،بدعوى أن الامراء ينحدرون من سلالة شريفة ،وهم بذلك أحق بالحكم من غيرهم .يضاف الى ذلك فساد في العقيدة ،واستسلام للقدر ،الى قابلية للاستعمار .

طوف الافغاني كثيرا من البلدان الاسلامية ،ثم بدا له أن يستقر في مصر ،لما ظهر له فيها من معالم التقدم ،ودلائل الاستقلال ،اذ كانت مصر على عهد اسماعيل تخطو نحو التفتح والانتقال من الحكم الفردى الى الحكم النيابي ،ثم ان فيها عددا من السوريين الذين نزحوا اليها ،وهم من علية القوم فكرا ونشاطا ،وفيهم قابلية للتطور .

نظر جمال الدين الى الشعوب العربية والاسلامية فوجدها متفرقة ،فعلم أن داءها في أنها ((اختلفت على الاتحاد ،واتحدت على الاختلاف)) (١) وهي العبارة التي جاءت على لسان ابن خلدون بألفاظ أخرى ،وهي قوله : (اتفق العرب على أن لا يتفقوا) كأن هذا الجنس العربي في العصرين :عصر ابن خلدون ،وعصر الافغاني ليس ذاك الجنس الذى دوخ أمما في القرن السابع والثامن الميلاديين .

سعى جمال الدين الى جمع كلمة هؤلاء المتفرقين ،تحت لواء اسلامي موحد ، ليحاربوا به الدول الاستعمارية في كل مكان .

---

(١) العروة الوثقى (المقدمة) _ دار العرب ط ١ ص ٥٧/١ .

اتصل جمال بتوفيق قبل أن يتولى الحكم في مصر ،واعجب كل بالاخر ،ووعد توفيق الافغاني بأنه سيكون حليف الشعب المصرى ،متى آلت اليه السلطة. حدث في هذه الاونة أمران هامان.كان لهما تأثير سيء على سير الاحداث ،وعلى آمال الافغاني.

أحدهما: ان توفيق اعتلى عرش مصر ،خلفا لاسماعيل المخلوع ولكن توفيق ما كاد يتولى السلطة حتى تنكر لمبادئه التي كان قد تظاهر بها أمام الافغاني، وبذلك يكون قد أخلف وعده.

ثانيهما: قامت الثورة العرابية ولكنها أخمدت وتركت آثارا سيئة على الوضع السياسي في مصر.وكانت السبب الرئيسي لدى الانجليز للتدخل في الشئون المصرية.

وكان الافغاني يود أن ينسق قادة مصر من سياسيين وعسكريين خطتهم حتى لا يفشلوا ويتنازعوا كما يود الاعداء.

لم ينجح الافغاني مع الخواص على مختلف المسئوليات ،فاتجه الى الشباب، فوجد فيهم رغبة صادقة في السير معه قدما للنهوض بالامة العربية والاسلامية، فاستبشر خيرا.ورأى أن أحسن وسيلة لتحقيق مآرب المسلمين أن يجمعهم تحت لواء جامعة اسلامية.

الجامعة الاسلامية

بما أن جمال الدين الافغاني ينحدر من أفغان وهي دولة اسلامية ،ورأى أن العرب الاولين لا يفرقون بين مسلم وأخيه المسلم وأن العزة لهم جميعا متى سادوا، وأن الذل لهم جميعا متى استضعفوا.وأن الذى يفرق بين مسلم وآخر بدعوى أن هذا عربي ،وهذا أعجمي ،انما يدعو الى الشعوبية التي مر بها العالم الاسلامي في ظروف معقدة بسبب الاحداث التي كانت تجرى آنذاك.

حدثت هذه الشعوبية أيام العباسيين ،بسبب عزة العنصر العربي يومئذ.وهل توجد عزة بمعنى الكلمة في عصر الافغاني؟ الجواب بطبيعة الحال بالنفي.واذن فلم لا يتفق المسلمون جميعا من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ليكونوا وحدة متماسكة يستعصون بها ضد أى قوى أجنبية متربصة.

كان الانجليز بالمرصاد لتحركات الافغاني ونشاطه السياسي ،ومبادئه الاسلامية وادركوا أن نجاحه في انشاء جامعة اسلامية آنذاك ،معناه: خروجهم من الهند، وحرمانهم من السيطرة على الدول العربية في منطقة الشرق الاوسط.فكان رد فعلهم

أن أوحوا الى بعض الطوائف العربية بانشاء الجامعة العربية بدعوى التحرر من الاتراك العثمانيين.هذا في الظاهر ،أما الحقيقة ،لتكون الجامعة العربية مناهضة للجامعة الاسلامية التي يدعو اليها الافغاني.

على الرغم من المساعي الحثيثة التي كان يبذلها الانجليز في انشاء جامعة عربية ،فان هذه الجامعة لم تظهر للوجود الا عقب الحرب العالمية الثانية.بينما أسست جامعة اسلامية في الهند سنة ١٩٠٦ وترأسها الزعيم محمد على جناح وبعث فيها من روحه فاذا دولة اسلامية تبرز للوجود سنة ١٩٤٧ هي دولة الباكستان الفتية (١)

في الوقت الذى كان جمال الدين الافغاني يدعو الى انشاء جامعة اسلامية. كان الانجليز يدعون الى انشاء دولة يهودية في قلب الامة العربية.

وفي سنة ١٩٤٧ نادى محمد علي جناح باستقلال باكستان ،وفاز بأمنيته وأمنية المسلمين هناك في الهند ،فلم يلبث الانجليز الا مدة قصيرة فاذا هم يساعدون اليهود ليعلنوا عن قيام دولة اسرائيلية في سنة ١٩٤٨ وفي قلب الامة العربية.

كان الافغاني يدرك تمام الادراك ان الانجليز يكرهون الجنس العربي والاسلامي على حد سواء ،لذلك كان يحذر منهم ويخشى من مخادعتهم ((فهم حريصون كل الحرص على التنكيل بالممالك الاسلامية ،وعلى التهامها واحدة بعد الاخرى ،وهم لا يترددون أمام أية وسيلة من الوسائل ،ولا يحترمون أى مبدأ من المبادىء اذا أرادوا تحقيق مآربهم.وأكثر ما يعتمدون في ذلك على اصطناع اللين والخداع ،والمخاتلة ،حتى يظفروا لانفسهم أو لقوم سواهم بجزء من أراضي المسلمين)) (٢).

بمثل هذا الفهم كان الافغاني يفهم الانجليز ،ومع ذلك فقد ظن هؤلاء أن في استطاعتهم أن يحتالوا عليه ليجعلوا منه عميلا لهم في السودان.اثر ظهور الحركة المهدية بالسودان سنة ١٨٨١/١٨٩٩ لمقاومة الاحتلال الانجليزي، والاستقلال بالبلاد تحت ظل الوحدة الاسلامية في شطرى السودان: شماله وجنوبه.

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة (جامعة)

(٢) العروة الوثقى ،ص ٢٦

ارتأى ساسة انجلترا ان داء الثورة المهدية الاستقلالية يمكن معالجته بداء من نوعه فاستدعوا جمال الدين وقالوا له : ((تصورنا أن نرسلك الى السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدى وتمهد لاصلاحات بريطانيا فيه)) (١)

رفض الافغاني الاقتراح البريطاني ،لانه يعلم خفايا القوم من جهة ،وهو مع الثوار اين كانوا من جهة أخرى وخاصة اذا كانوا من المسلمين واسلاميين .والسودان مسلم وحركته اسلاميه .

عجز الانجليز عن الافغاني ،فراحوا يطاردونه بواسطة عملائهم في كل مكان ، حتى أصبح في نظر النفعيين من المغضوب عليه .

سمع الخديوى بأن جمال الدين قد أكثر من تلقين الشباب مبادئ الثورة على المستعمرين وأذنابهم .وكان الخديوى توفيق هو نفسه يعرف ثورة الافغاني على الاوضاع السياسية السائدة ،وكان لا يزال يذكر وعوده له بأنه سيكون مع الشعب متى ارتقى عرش مصر ،ولكنه ما كاد يتولى السلطة ويسمع بنشاط الافغاني حتى أمر بطرده شر طردة .قال محمد عبده (لاريب في أن الانزعاج بنفي جمال الدين كان عاما ، والكدر كان تاما ،ولكن الخديوى أظهر سروره بما فعل .وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان .فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم ،والفضل في محضر الشيخ جمال الدين .والزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي والتقريع الشديد بما لم يكن يستحقه الرجل .كما أنه كان فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه ،فنشره البعض ،وأبت احدى الجرائد نشره ،فعطلت) (٢) .

الفصل الثاني : العروة الوثقى .

أبعد الافغاني من مصر الى الهند ،وضيق عليه بأمر الانجليز ومكث مدة الى أن قضي على الثورة العرابية في مصر ،ودخلها الانجليز ،عندئذ سمح له بمغادرة الهند على أن لا يبقى في الشرق .وفي هذا الوقت كان محمد عبده منفيا في بيروت بتهمة اشتراكه في الثورة العرابية .

(١) العروة الوثقى ، ص ٣٥

(٢) العروة الوثقى ، ص ٣٢

كاتب الافغاني محمد عبده ليوافيه في باريس على أمل أن يقوما بنشاط من نوع آخر لفائدة المسلمين جميعا .فقر قرارهما على انشاء مجلة العروة الوثقى لتكون الوسيلة الى توعية الانسان المسلم فيعرف ما عليه من واجبات ،وما له من حقوق ، والاسباب التي جعلته في يوم ما قويا ،وصيرته أخيرا بسبب التفريط فيها ضعيفا . الى جانب تقوية الروابط الروحية بين سائر أفراد الامة الاسلامية .

صدر من المجلة ثمانية عشر عددا في مدة ثمانية شهور كان أول عدد منها في سنة ١٨٨٤ ،وآخر عدد في ١٧ أكتوبر من نفس السنة .

تعاون كل من الافغاني ومحمد عبده على نشر الجريدة .فكان الاول يدلي بآراء وأفكار .وكان الثاني يصوغها بأسلوبه .وكان ميرزا محمد باقر يعاونهما بما يطلع عليه في الجرائد العالمية وله علاقة بقضايا العرب والمسلمين .وكانت المجلة تبعث الى أماكن معينة ،في سائر الاقطار الاسلامية ،لتوزع على النخبة المثقفة بدون مقابل .

ولما أخذت المجلة تغزو العقول في كل بلد وأدرك الانجليز خطرها منعوها من الدخول الى البلدان التي تحت ايديهم ،وأوعزت الى الحكومة المصرية لتتعقب من يقرؤها من الاحرار الذين ترسل اليهم .فكان ان استجابت الحكومة المصرية لدعوة الانجليز ((فحددت عقوبات لمن يضبط متلبسا بجريمة قراءتها)) (١)

وبهذه الطرق التعسفية توقفت المجلة ،ولكنها تركت آثارا في نفوس المسلمين جميعا ،في مشارق الارض ومغاربها .

الافغاني وريـنـان :

اتصل الافغاني برينان فيلسوف فرنسا وأوروبا ،وأعجب كل واحد منهما بالاخر ،مع اختلافهما في عدد من المسائل .أهمها ما يتعلق بالامم الشرقية .ومنهم :المسلمون . والامم الغربية .ومنهم :الاوربيون .اذ يرى رينان : (ان العنصر الاوربي ،هو عنصر الاسياد والجنود ،ولهذا فان حمل هذا العنصر النبيل على العمل كما يعمل العبيد والشرقيون ،يدفعه الى الثورة ،وذلك لان كل ثائر عندنا ،انما هو جندي لم يؤد رسالته ،لانه مخلوق وجد ليحيا حياة البطولة ،فاذا به يجبر على القيام بمهمة لا تتفق وعنصره .فهو عامل فاشل ،وان كان جنديا باسلا ،غير أن الحياة التي يثور عليها عمالنا ،تجعل الشرقي والفلاح سعيدين .وهما كائنان لم يخلقا للحرب ،فليقم كل منا بما خلق له ،فتسير الامور عندئذ على أتم وجه) (٢) .

(١) العروة الوثقى ،ص ٣٤

(٢) المصدر السابق ،ص ٧

ان هذا التفكير كان سائدا في أواخر القرن التاسع عشر .وهو التفكير الذى كان سائدا أيام سقراط وأرسطو .وهو التفكير الطبقي .وسببه في العصور الاولى أن طبقة العبيد لم يستطيعوا أن يكسروا الاغلال التي غلت بها أعناقهم ،لجهلهم أولا ،ولتعودهم هذا النوع من الحياة ثانيا .

أما في القرن الماضي فكان سبب هذا الشعور يرجع الى ما يسمى (بقابلية للاستعمار) فالشعوب العربية والاسلامية كانت مستعدة لتقبل الاستعمار .وهذا ما يؤكده مالك بن نبي في كتبه .ولم يحدد الاسباب .وأراها تتمثل في الحياة القاسية التي مر بها كل شعب من هذه الشعوب .

والذى يستعرض الاحداث التاريخية يجد أن الاخضاع والاذلال بدأ أول ما بدأ من الخلفاء والامراء ،والسلاطين ،والملوك . .فكان طبيعيا أن يجد الاستعمار هذه الشعوب مهيأة لان تتقبل استعمارهم ،وكأنها استبدلت استعمارا باستعمار .

هذا التعليل لم يفطن اليه مالك بن نبي .وأراه حقيقة .ومعنى هذا أن الشعوب الاسلامية يجب عليها أن تلقى اللوم على الاعداء الذين هم من جنسها لا الذين غزوها من الخارج بعد الذى نالها من سياط الطغاة المسلمين والعرب .

ورينان نفسه لم يفطن الى مصدر الضعف في المسلمين ،ومصدر القوة في الاوربيين .

قد كانت أوربا ضعيفة ،والانسان فيها عبد .والسبب يرجع إلى ساسة أوربا آنذاك ،فهم استضعفوا رعاياهم ،حتى الفت حياة الذل والعبودية .ولما استيقظ الشعب وأزال عن نفسه سمة العبودية أصبح عندئذ جنديا باسلا .أما قبل ذلك ،فهو يشبه المسلمين في عصره .

كما ان رينان أخطأ حين زعم أن المؤرخين تسرعوا في الاحكام حين أقروا للعرب بالعلوم والفنون والتمدن ،والفلسفة .وذهب الى أن الاسلام لا يشجع على (العلم ،والفلسفة والبحث الحر ،بل هو عائق لها ،بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات ،والايمان التام بالقضاء والقدر .ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد او احرقت كتبه ،او كان في حماية خليفة أو أمير مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن .ومع ذلك فما وصل اليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة . فهو ليس الا فلسفة اليونان مشوهة .

والفلسفة التي أخذها الاوربيون عن المسلمين في اسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ،مشوهة الاصل ،لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة الا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الاصلية (١) .

والذى يتأمل هذه الافكار التي أعلنها رينان يجدها متناقضة ،فمن جهة يثبت أن المسلمين اشتغلوا بالفلسفة . ومن جهة أخرى يقول أن الاسلام ضد الفلسفة ، وأغرب من ذلك أنه ينسب الاعتقاد الغيبي وما يتصل به الى الاسلام .وهذا خطأ آخر .وكأني به لا يفرق بين الاسلام والمسلمين .أما أن المسلمين قد ابتعدوا عن المبادىء الاسلامية الصحيحة ،فنعم .أما ان الاسلام عائق فلا .

ومع هذه التهجمات على الاسلام ،فان رينان يعترف صراحة بأن هناك سرا يكمن في الاسلام ،يؤثر في النفوس ،ويفعل فيها فعل السحر ،وفيه (تعاليم ومبادىء عالية القيمة ،رفيعة المقام .وما دخلت في حياتي مسجدا من مساجد المسلمين الا شعرت بجاذبية نحو الاسلام ،بل تأسفت ألا أكون مسلما) (٢)

رد الافغاني على رينان في هذه النظرية ردا ليس بذى خطر ،لذا لم يكن لرده صدى لدى الشباب الاسلامي المتحمس ،وأهمل رده ،فلم ينشر في الجرائد ، ولم يترجم .

الــرد عــلى الــدهــريــين

في هذا الوقت الذى كان الافغاني يدعو الى محاربة الاستعمار وأعوانه ، ظهرت فكرة الدهريين الذين انغمسوا في الماديات الى الاذقان ،وأخذوا يروجون لفكرتهم بين مختلف البلدان ،وخاصة الشباب

خاف الافغاني من هذا الداء العضال الذى أخذ يسرى في جسم الامة الاسلامية كالسرطان ،فظهر له وهو بالمنفى في الهند أن يؤلف رسالة يتناول فيها الاضرار التي تصيب الامم المنغمسة في الملذات ،وتنسى المثل العليا التي هي الاساس الحقيقي لبقاء الامم ما بقيت تلك المثل العليا .والرسالة وان كانت تحمل عنوانا خاصا الا أنها تشتمل على موضوعات مختلفة : دينية ،وفلسفية ،واجتماعية .

---

(١) زعماء الاصلاح ، ص ٨٦

(٢) المصدر السابق ،ص ٨٦

ومما جاء في الرسالة رده على مذهب " دروين " الذى يرى أن الانسان كان قردا ((ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القورن المتطاولة ،وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ (أوران ؛وتان) ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان .فكان صنف اليميم وسائر الزنوج . ومن هناك عرج بعض افراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين .فكان الانسان القوقاسي)) (١) .

رد الافغاني على هذه النظرية قائلا : (وعلى زعم دروين هذا ،يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون ،وكر الدهور ،وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك)(٢)

ثم انتقل الى الاشجار والاسماك ،والحيوانات ،يتحدث عن اختلافها مع أنها في مكان واحد ،وأن دروين لو سئل عن السبب لعجز .

خاتمة المطاف

عاصر الافغاني حكاما مستبدين ،ونظريات مادية خطيرة ،فحاول أن يصلح من شأن الحكام ،وأن يبين النظريات الفاسدة ،فنجح في حياته بعض النجاح ،ولكنه حقق كل النجاح بعد مماته ..

اتصل الافغاني بشاه ايران وحادثه مليا ثم اقترح الشاه على جمال الدين أن يقيم في ايران ليعملا معا على الاصلاح .فقبل جمال الدين هذا الاقتراح بعد تردد ، ولكن ما كاد يخطو خطوة حتى اكفهر الجو ((وأنذر بالصواعق .فقد وسوس الصدر الاعظم للشاه: أن الحكم النيابي يسلبه سلطانه .والنظام الادارى والقانوني المقترح أعلى من مستوى الشعب)) (٣) .

أخلف الشاه وعده ،وأحس الافغاني بالخطر ،فخرج الى ضريح ((عبد العظيم أحد حفداء الائمة ...والفرس يعدون مقامه حرما من دخله كان آمنا ،اتخذه السيد مركزا لدعايته وخطبه وتهييج الرأى العام لطلب الاصلاح)) (٤)

---

(١) كتاب الرد على الدهريين ،ص ٤٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢

(٣) (٤) زعماء الاصلاح ،ص ٨٦ وما بعدها

كان الناس على اختلاف مناصبهم يحجون الى هذا الضريح فيسمعون من الافغاني ما جعلهم يقومون بما أرعب الشاه .فهذه منشورات ،وهذه دعايات ،وهذه رسائل احتجاج تصل الى الشاه تطالبه بتطبيق العدالة الاجتماعية أو التخلي عن الحكم .

(فما راع السيد الا خمسمائة جندى مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ،ولا بمرض السيد مرضا شديدا (١) .

أبعد الافغاني من ايران فاتجه الى العراق ،فلندن ،وأخذ يؤلب الناس على سياسة الشاه ،فخافه كما خاف منه السلطان عبد الحميد ،فأوعز الى من يحبب اليه الذهاب الى الاستانة لينفذ آراءه في الاصلاح ،فقبل الافغاني ((وما أن وضع قدمه في الاستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه .لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الاستانة اذا شاء ،ولكن كان كل ذلك خدعة)) (٢) .

وفي هذه الاثناء هاجم أحد الشبان الايرانيين ممن تتلمذ على الافغاني على شاه ايران ،وطعنه وهو يقول: " خذها من جمال الدين فيرتاع عبد الحميد لمقتل الشاه ،ويضيق على جمال الدين .

وأخيرا أصيب الافغاني بمرض السرطان في فمه ،ويموت بسبب ذلك ،وتتجه أصابع الاتهام الى السلطان .

(١) زعماء........

(٢) زعماء الاصلاح ،ص ٨٦ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق

الباب السابع

الحركات الدينية

الفصل الاول : الحركة الوهابية .

في أوائل القرن الثامن عشر بدت نوايا الاستعمار التوسعية تظهر للعيان ، وشعر العرب بخطرها ،وأدركوا في نفس الوقت أن لا قبل لهم بقوة الغرب .لان الساسة الذين بيدهم مقاليد أمورهم كانوا من الاتراك .وهؤلاء نهكتهم الحروب الكثيرة التي كانت تدور رحاها منذ أن تولوا قيادة الامم التي حكموها .وفي هذه الظروف الحالكة نشأت حركات دينية مبعثها جمع شمل الامة العربية الاسلامية ، والدفاع عنها ،وعن تراثها الفكرى والروحي .

وأهم هذه الحركات اثنتان .احداهما في المشرق العربي ،ويتزعمها محمد بن عبد الوهاب :منشيء المذهب الوهابي .والحركة الثانية :في المغرب العربي ، وزعيمها محمد بن علي السنوسي .ظهرت الحركة الوهابية في نجد على يد محمد عبد الوهاب ،وهي تقوم على :الكتاب ،والسنة ،وكل ما لا أصل له منهما فيعد بدعة ، كزيارة القبور للتبرك ،بدعوى أنها لاولياء الله الصالحين .على هذا الاساس هدمت الاضرحة ،وما يشبهها كالقائم من القبور .

نادى محمد بن عبدالوهاب بهذا المذهب ،ووجد في أول الامر معارضكبيرة ، لان الناس الفت البدع ،والحياة الهامشية ،وظنوا أنها الحياة الاسلامية الحقة ، فكثر تجريحهم لمبادىء ابن عبد الوهاب ،ووجدوا في الخلافة العثمانية سندا .

تسارع سلاطين آل عثمان الى إخماد نار الفتنة التي أشعلتها الافكار الوهابية في كامل الجزيرة العربية ،وكلفوا محمد علي أن يقوم باخمادها فورا ،ولكن محمد علي تقاعس لامر في نفسه فاذا الوهابيون ينتصرون عسكريا على فلول الجيوش العثمانية بعد أن غذوا الافكار .

بعد المماطلة الطويلة التي قام بها محمد اذعن للاستانة وبعث جيشا جرارا الى الجزيرة العربية .فاذا هذا الجيش لم يحقق ما كان يرجوه سلاطين آل عثمان ، على الرغم من أنه انتصر في كثير من المواقع .

فلم تكد تأتي سنة ١٩٢٤ حتى أصبحت الجزيرة العربية تدين بالمذهب الوهابي .والمتصفح لتاريخ هذه الحركة يجد أنها مرت بعقبات كثيرة شأنها شأن

جميع الحركات الجديدة التي لم تألفها العقول .فقد كان المسلمون في كل مكان ينظرون اليها نظرة استياء ،وكأنها دعوة لتحطيم الاسلام من أسسه ،لذلك كانت الدعاية تقوم في كل مكان ضد الحركة الوهابية .

ولكن الذى حدث ان انتصرت الحركة الوهابية على الرغم من مقاومتها بجميع الاسلحة ،لان هذه الحركة كانت تنادى بأن الاسلام لا يعود الى أصله الا اذا جدد على ما بني عليه من دعاية سلمية أولا ،ثم اذا لم تنجح الدعاية استعمل السيف لحماية المبادىء .

وعلى الاساسين انطلقت الحركة الوهابية من معقلها الى أن انتصرت بعد جهاد طويل .واثر انتصاراتها كانت تعتقد أن الاسلام الحقيقي هو هذا الذى يسود منطقة جزيرة العرب في الوقت الحاضر .أما ما عدا ذلك فهم كفار ،ودارهم دار حرب

ويلاحظ أن الحركة الوهابية كانت في أول الامر ترى أن القهوة حرام ،ولكنها ما لبثت أن أباحتها .كما أصبحت تنظر الى الذين يسكنون خارج الجزيرة العربية نظرة اسلامية ،والسبب أن المدنية الحديثة أثرت في جميع العقول ،بحكم الاحتكاك المباشر بين سائر الدول ،وبحكم وسائل الاتصال ،وسرعة المواصلات . . .

الفصل الثاني : الحركة السنوسية .

هي حركة دينية تقوم على : التثقيف والجهاد .أسسها :محمد بن علي السنوسي الادريسي المولود بمستغانم سنة ١٧٨٧ .

طاف السنوسي كثيرا من البلدان العربية :مغربية ،ومشرقية .ثم قر قراره في واحة (جغبوب) . قبل أن يستقر به المقام في جغبوب كان قد شيد زاوية في جبل الاخضر ،تعد نواة لعدد كبير من الزوايا التي أنشئت بعد موته ،وانتشرت من المغرب الاقصى الى الهند ،الى الصحراء الكبرى .

بعد موته خلفه ابنه محمد المهدى ،وقد نشط هذا الابن كثيرا ،في توسيع عدد الزوايا حتى وصلت الى ثلاثمائة زاوية . وفي سنة ١٩١٥ تولى زعامة الحركة السنوسية ادريس السنوسي الذى أصبح بعد استقلال ليبيا سنة ١٩٥١ ملكا عليها .

اكتسب ادريس السنوسي شعبية كبرى قبل أن يتزعم الحركة الدينية ،ذلك أن الايطاليين كانوا هاجموا ليبيا سنة ١٩١١ وأرادوا احتلالها بقوة السلاح ،فكان

أن تجند الشعب الليبي تحت عدد من الزعماء والرؤساء ومنهم ادريس السنوسي الذى لعب دورا هاما في الجهاد ضد الايطاليين .وبعد الحرب العالمية الثانية اقصيت ايطاليا من ليبيا لانها خسرت الحرب كما خسرتها حليفتها المانيا .

لم يصل ادريس السنوسي الى هذا المنصب الا بفضل ماضيه وماضي أسرته ، وبفضل الشهرة التي كان يتمتع بها السنوسيون في العالم العربي فقد كانوا موضع مساومة مرة ،وموضع اغراء مرة أخرى .

فكم مرة أشاع المستعمرون على اختلاف أجناسهم بأن الحركة السنوسية مناوئة للخلافة العثمانية ،مع أن الحركة السنوسية كانت حركة دينية محايدة .وكم مرة تتقدم ألمانيا إلى السنوسيين ليساعدوها على زحزحة فرنسا من افريقيا ليحلوا محلها ،وكأنهم أحسن منها ،وما دروا أن لا فرق بين استعمار واستعمار ،ولذا رفض السنوسيون مقترحات المانيا من أساسها ،وهي مقترحات ظاهرها الرحمة ،وباطنها الاستعمار الدائم .

حدث هذا في سنة ١٨٧٢ اثر انتصار المانيا على فرنسا في سنة ١٨٧١ .كان المانيا بانتصارها آنذاك على فرنسا شعرت بعظمتها .وبطبيعة الحال أن الشعور بالعظمة يوحي بالهيمنة المطلقة ،وكأن الشعوب الافريقية وخاصة شمال افريقيا أنعام تباع وتشترى .

ومثل هذا حدث من تركيا ،بل حدث أيضا من إيطاليا ،ففي سنة ١٨٧٦ طلبت تركيا من السنوسيين أن يساعدوها ليقفوا جميعا ضد الغزو الفرنسي لتونس . رفض السنوسيون مطالب هذه الدول جميعا ،لانهم يدركون أنها على اختلاف اجناسها ، لا تعمل الا لصالح ابنائها ،وحتى الدولة العثمانية التي تربطهم بها رابطة دينية ، لا يرون فيها السلاح الاسلامي الحاد الذى ينتصر على الاعداء .فهناك سلاطين وأمراء ورؤساء ،وعلماء ،ولكنهم جميعا (لايزيدون على أن يكونوا كقطيع من الغنم الذى لا راعي له) (١) لانهم لا دستور لهم .

أدرك السنوسيون أن الاسلام لا ينتصر الا على يد المسلمين المخلصين ، الذين يستوحون مبادئهم من القرآن والسنة . (في ظل هذه المشاعر والمفاهيم عمل محمد علي السنوسي ،على بناء قوة عربية في صحراء ليبيا ،تقوم دعامتها على

---

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا :أنور الجندى ص ٢١ – ص ٢٢ الدار القومية – القاهرة ١٩٦٥ .

أساس الزوايا المتناثرة ،وتمتد لتطوق العالم الاسلامي كله ،الى السودان ،الى غرب و أواسط افريقيا ،الى صحراء ليبيا ،الى مصر ،الى مكة ..على نحو يحمل صورة الطرق الصوفية ،ولكنه يعتمد أساسا على المفاهيم السلفيـة المتحررة (١) عودة الاسلام الى منابعه الاولى (٢) تطهير العقيدة من أدران البدع والخرافات. (٣) توحيد المذاهب ،وجمع العالم الاسلامي على وحدة حقيقية. (٤) فتح باب الاجتهاد (٥) نشر الاسلام في البلاد التي لم ينتشر فيها (٦) مقاومة النفوذ الاجنبي (١) .

---

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا :أنور الجندى ص ٢١ — ص٢٢ الدار القومية — القاهرة ١٩٦٥.

الباب الثامن

روافد النهضة العربية ،والمراسلات السياسية

الفصل الاول : روافد النهضة العربية الحديثة

قامت النهضة العربية الحديثة على عدد من الروافد ،بعضها قديم ورثناه عن تراثنا الاصيل ،وبعضها الآخر حديث استوردناه من الغرب.

تنحصر الروافد الاولى في المعاهد الدينية التي حافظت على لغتنا ،وثقافتنا العربية ،مثل جامع الزيتونة بتونس (١) وجامع الازهر بالقاهرة (٢) وجامع القرويين بالمغرب الاقصى (٣)

أما الجزائر في هذا العصر الذى نؤرخه فقد كانت فيه وسائل النهضة متواضعة لانها قاصرة على بيوت العلماء ،والمساجد والزوايا .ومن ثم فقد كان التعليم ضعيفا

أما الروافد الثانية ،فكثيرة .مثل :الطباعة ،الصحافة ،المدارس ،الجمعيات ، النوادى المختلفة .وخاصة النوادى الثقافية .يضاف الى كل ذلك المستشرقون ، والوسائل السمعية والبصرية..

الطباعة والصحافة

ساهمت الطباعة في بعث النهضة العربية الحديثة ،بما نشرته من الكتب في مختلف العلوم والفنون ،سواء ما كان معروفا قديما ،أو ما ترجم حديثا ،وبذلك تفتحت الاذهان من جديد ،واطلع العرب المحدثون على الكنوز الثمينة التي تركها الاقدمون من أبناء العروبة والاسلام ،كما أطلعوا على كنوز المعاصرين من ابناء الغرب .ورأوا في كتب هؤلاء وأولئك ما جعلهم يدركون أن هناك طريقا صحيحا للتعبير القويم غير الذى كان معروفا عن العلماء التقليديين الذين كانوا يظنون أن الادب الحقيقي يقوم على الزركشة والزخرفة والسجع المصطنع.

لعبت الصحافة دورا كبيرا في تهذيب العقول وفي رفع المستوى الثقافي ،ثم في إحداث نهضة أدبية وعلمية ،وفي غرس المبادئ السامية في النفوس .مثل : الحرية..والنداء بتحرير الاوطان..وتحرير المرأة..وتوحيد الامة العربية والوقوف في وجه الاستعمار .والتعاون....

---

(١) انشاه عبد الله بن الحبحاب (٧٣٢م). (٢) انشاه جوهر الصقلي (٩٧٠م)

(٣) انشيء في فاس (٨٥٩م)

كل هذه الموضوعات طرقتها الصحافة ثم تبناها زعماء كبار ،ناضلوا في سبيل المبادىء التي آمنوا بها .كل حسب جهاده .فهذا في الميدان السياسي أو العسكرى وهذا في الميدان الاصلاحي أو الديني ...وما من ميدان الا على رأسه زعيم ،ثم جاء دور الكتاب والشعراء ليناصروا بعض القضايا الوطنية العادلة ،فاذا النهضة العربية تشق طريقها ،وتسعى جاهدة لتلتحق بالركب الحضارى في كل ميدان. وينتظر في القريب العاجل أن تسابق غيرها من الأمم المتقدمة ،فتسبقها .

الفصل الثاني :المراسلات السياسية

دارت مراسلات بين مكماهون ممثل التاج البريطاني ،وبين شريف حسين أمير مكة ،وذلك في سنة ١٩١٥ والحرب العالمية الاولى قائمة على قدم وساق، وانجلترا تضم أقطارا لاتغيب عنها الشمس ومنها مصر .

نكتفي بذكر مذكرتين احداهما تمثل التفكير الانجليزى آنذاك وكاتبها ممثل بريطانيا في مصر ،وهو مكماهون .والرسالة الثانية تمثل التفكير العربي ،وكاتبها شريف حسين أمير مكة .والرسالتان تعدان نصوصا تاريخية ،ولذا فاني أنقلهما نقلا دون تحليل أو تعقيب .

((مذكرة السير هنرى مكماهون الاولى الى شريف حسين، القاهرة في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ آب – أغسطس – سنة ١٩١٥ .

الى السيد الحسيب النسيب، سلالة الاشراف ،وتاج الفخار ،وفرع الشجرة المحمدية ،والدوحة القرشية الاحمدية .صاحب المقام الرفيع ،والمكانة السامية، السيد ابن السيد ،والشريف ابن الشريف .السيد الجليل المبجل دولتلو .الشريف حسين . سيد الجميع .أمير مكة المكرمة. قبلة العالمين ،ومحط رجال المؤمنين الطائعين .عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة ،والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة ،نعرض: ان لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص ،وشرف الشعور ،والاحساسات نحو الانجليز .

وقد يسرنا علاوة على ذلك .أن نعلم .أن سيادتكم ورجالكم على راى واحد وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الانجليز ،والعكس بالعكس .

ولهذه النسبة ،فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت الى سيادتكم عن يد علي أفندى ،وهي التي كان موضحا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب ،وسكانها ،مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها .

وانا نصرح هنا مرة أخرى :أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة الى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

واما من خصوص مسالة الحدود والتخوم ،فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لاوانها .وتصرف الاوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة ان الحرب دائرة رحاها ،ولان الاتراك ايضا لا يزالون محتلين لاغلب تلك الجهات احتلالا فعليا . وعلى الاخص ما علمناه – وهو ما يدهش ويحزن – ان فريقا من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها ،قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها وبدل أقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة الى الالمان . نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد ،وهو الالمان ،وذلك الظالم العسوف وهو الاتراك .

مع ذلك فانا على كمال الاستعداد لان نرسل الى ساحة دولة السيد الجليل . وللبلاد العربية المقدسة ،والعرب الكرام ،من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية ،وستصل بمجرد اشارة من سيادتكم ،وفي المكان الذى تعينونه .وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته الينا ،ونحن على الدوام معكم قلبا وقالبا ،مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ،ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا .

وفي الختام أرفع الى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي ،وفائق احترامي

المخلص : السير آرثر مكماهون
نائب جلالة الملك

مذكرة الشريف حسين الى السير هنري مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣، (٩ ايلول – سبتمبر – سنة ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله:

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته، وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الاساسية. أعني نقطة الحدود.

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم اخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشئون وفي أي شكل، وفي اية ظروف. ويجب أن اؤكد لكم ايضا ان مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم.

ويعذرني فخامة المندوب اذا قلت بصراحة: إن " البرودة " و " التردد " اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود، وقوله: إن البحث في هذه الشئون، انما هو إضاعة للوقت، وأن تلك الاراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها..

ويعذرني فخامته اذا قلت: ان هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور، أو على شيء من هذا القبيل.

فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد.

وهذا ما جعل الشعب يعتقد انه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة، ويعلقون عليها كل الامال وهي بريطانيا العظمى.

واذا أجمع هؤلاء على ذلك فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك. وهم يرون انه من الضروري جدا ان يتم تنظيم الاراضي المجزأة، ليعرفوا على إي اساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم انجلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي الى نتيجة معاكسة، الامر الذي حرمه الله.

وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا – في تلك الحدود – مناطق يقطنها شعب أجنبي، بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فان الله يرضى عنها، ويسر الناس بها.

وإن على ثقة ياصاحب الفخامة، انكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصيا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية. أو ليس هذا صحيحا يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فاننا ثابتون في اخلاصنا. نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع. أكنتم راضين عنا – كما قيل – أو غاضبين.

أما ما يتعلق في قولكم بأن قسما من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الاتراك، فلا أظن ان هذا يبرر " البرودة " و " التردد " اللذين شعرت بهما في كتابكم، فيما يتعلق بموضوع الحدود. الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأي ينكر انه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية.

وانا حتى الساعة لا أزال انفذ ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل أقوم به، وأراه مفيدا وصالحا لبقية المملكة، واني ساستمر في هذا الى أن يأمر الله في غير ذلك.

وأود هنا يا صاحب الفخامة، أن أؤكد لكم بصراحة ان كل الشعب – ومن جملته هؤلاء الذين يقولون: انهم يعملون لصالح تركيا والمانيا – ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى وخطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقا لسياستها في هذا الموضوع، فما عليها الا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها. ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب اليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الان لفرنسا في بيروت وسواحلها. ولست أرى حاجة هنا لان ألفت نظركم الى ان خطتنا هي آمن على مصالح انجلترا، من خطة انجلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا، كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فان الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء ·وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة ،قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة ،تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة ·

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ·وأنا أصرح بهذا رغم اني اعتقد وأومن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم ·ويستطيع معالي الوزير ،وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا ، وعزيمتنا ،وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورس منذ عامين ·ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا ،وخاصة فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها الينا القدر بسرعة ووضوح ،لنكون حجة – نحن والذين يرون رأينا – في العمل ضد تركيا ،ودون أن نتعرض للوم والنقد · (١)

---

(١) يقظة العرب ،تاريخ حركة العرب القومية ، تأليف جورج انطونيوس ·ترجمة الدكتور :ناصر الدين الاسد – والدكتور احسان عباس ·دار العلم – بيروت ط ٢ – م ١٩٦٠ – ص ٥٤٨ وما بعدها ·

فهـــرس

المراجع

الدولة الاسلامية : العبادى ـ زيادة ـ العدوى
تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ جرجي زيدان
الموسوعة العربية : جماعة من المؤلفين
تاريخ الطبرى ج ١١ الطبرى
حرب ثلاثمائة سنة : أحمد توفيق المدني
ظهر الاسلام : أحمد أمين ج١
المماليك في مصر
حضارة العرب : لوبون ـ ترجمة زعيتر
تاريخ الجزائر : عبد الرحمان
الموجز في تاريخ الجزائر : يحي بوعزيز
في الادب الحديث : الدسوقي
البعثات : طوسون
تاريخ مصر الاقتصادى : محمد فهمي
تاريخ مصر الحديث : محمد عبد الرحيم
نكبات الشام : مجهول
الساق على الساق : احمد فارس الشدياق
الاصالة : س ٥ عدد ٣٨
الحركة الوطنية الجزائرية : سعد الله
زعماء الاصلاح : أحمد أمين
العروة الوثقى : دار العرب
الرد على الدهريين : الافغاني
الفكر والثقافة المعاصرة : انور الجندى
يقظة العرب : انطونيوس، ترجمة الاسد/احسان عباس

انجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
29. نهج ابو نواس. حيدرة
الجزائر العاصمة

رقم النشر : 3.80 381